علماء العرب

٦

ابن بطوطة

رحالة الإسلام



تأليف : سليمان فياض
رسوم : اسماعيل دياب

الأهرام
مركز الأهرام
للترجمة والنشر

اهداءات ١٩٩٩
مؤسسة الأهرام للنشر والتوزيع
القاهرة

علماء
العرب

ابن بطوطة

رحالة الإسلام

سليمان فياض

الطبعة الأولى
١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م

الطبعة الثانية
١٤١٢ هـ - ١٩٩١ م

الناشر : مركز الأهرام للترجمة والنشر
مؤسسة الأهرام - شارع الجلاء القاهرة
تليفون ٧٤٨٢٤٨ - تلكس ٩٢٠٠٢ يو ان



أحـــلام الصبـــا

فى درْبٍ صغير بمدينةِ « طَنْجَةَ » بالمغرِب ، كان يعيشُ فتًى عربىّ مسلم ، من قبيلةِ لواته ، اسمه : « محمدُ بنُ عبدِ الله بنُ محمدِ ابنِ إبراهيم » . وكان معروفًا بين الناس بلقبِ : « ابنِ بطوطة » . وكان قد بلغَ من العمرِ اثنتيْن وعشرينَ سنةً .

كانت عائلتُه ميسورةَ الحال ، وكانت أسرتُه أسرةَ قضاءٍ وفقهٍ بالمغربِ والأندلس ، وكان قد حفظِ القرآنَ الكريم ، وجانباً من عُلومِ الدين ، ودرسَ عُلومِ اللغةِ العربيةِ على يدِ أبيه ، وكان أملُ أهلِه فيه أن يكونَ واحدًا من الفقهاءِ والقضاة .

لكنّ الفتَى « ابنَ بطوطة » كانَ هواه فى قراءةِ كتبِ الرحّالةِ والجغرافيّين ، من العربِ المسلمين ، والاستماعِ إلى أخبارِ الدّولِ والبلدانِ والناسِ ، وغرائبِ الدنيا ، وعجائبِ الأسْفارِ من الحُجّاجِ والتجّارِ ، والمُتصوِّفة الذين يجوبُون البلادَ شرقًا وغربًا ، والرحّالةِ

المغامرينَ جَوَّابِى الآفاق ، يلقاهُم فى ميناء « طنجة » ، أو « أصيلا » ، أو « أسفى » ، أو فى مدينةِ « فاس » ، وكثيرٌ منهم كان صديقًا لأبيهِ عبد الله .

وكثيراً ما كانَ « ابنُ بطوطة » ، يحملُ كتبَ الرحَّالة والجُغرافيِّين . ويذهبُ إلى شاطئِ البحر ، يقرأُ ما كتبوهُ عن بلادٍ لم ترَها عيناه ، وعن جُزرٍ مسحورةٍ فى البِحار ، عامرةٍ بالعجائبِ والغرائب ، فيشعرُ « ابنُ بطوطة » أنهُ فى بلدهِ على شاطئِ البحرِ سجين ، ويُحدِّق بعيداً فى الأفق ، ويسيرُ على مهَل ، مفتوحَ العينين ، صوْبَ الوديانِ ، والجبال ، والصحارَى الفسيحة ، ثم يعودُ إلى بيته ، مع قدومِ اللَّيل .

عـــدنى يا بـنى

كانت مدينةُ « طَنْجة » فى القرنِ الهجرىِّ الثامِن الميلادىِّ الرابعِ عشر ، ميناءً عامراً ، تفِدُ إليه السُّفن من الأندلس ، وجزائرِ البحرِ الأبيض ، وجزرِ المحيطِ الأطلسىّ ، والسواحِل الغربية فى أفريقية ، محملةً بالبضائعِ ، وبِناسٍ من شتّى الأجناسِ والشُّعوب : الفِرنْجة ، والعَرب ، والبَربْر ، والزُّنوج ، ثم تُبحِرُ محملةً بالبضائعِ الأفريقية ، إلى شتَّى بلادِ الدنيا ، ناشرةً أشرِعتَها البيْضاء ، ومعَها ، كمْ كان الفتى يودُّ الرحيل .

وفى الليالِى القمرية ، كان أبُوه « عبد الله » يُحدِّثه على سطحِ البيتِ بافتتان ، عن مدينةِ « طنجة » فى قديم الزمان . وانتهزَ الفتى فرصة

صفاءِ أبيه ، واستأذنَه فى الخروج إلى الحجِّ ، فصمتَ أبُوه برهة ، فكّر أن ابنَه يريدُ الحَجَّ حقا ، ولكنه يريدُ معه أيضاً السفرَ فى البلاد ، فقد امتلأتْ رأسُه بأحْلامِ الرحّالة ، وحكاياتِ السندبادِ فى ألفِ ليلةٍ وليلة .

وقال عبدُ الله لولدِه :

ـ لن أمنعَك يا بُنَىّ من الحجِّ ، ولا من الأسفار . وعسى أن تجدِنى حيًّا عندمَا تعوُد . فعِدنِى يا بُنَىّ أن تكتبَ إلىّ ، حيثما تكونُ فى أرضِ الله .

فبكَى « ابنُ بطّوطة » تأثُّرا ، وقبَّل يدَىْ أبيهِ شاكِراً ، وقال :

ـ أعدك يا أبى .

وعادَ عبدُ الله يقولُ لولدِه :

ـ مهما كانَ المالُ الذى ستحمِله معَكَ يا بُنَىّ ، فسوفَ تجدُه قليلاً فى أسفارِك . ولوْ إنكَ كنتَ قد صرتَ قاضيا يا بُنَىّ ، لنزلتَ ، أينما حَلَلْتَ ، ضيفًا على القُضاة . لكِنَّك يا بنُى قليلُ العِلمِ والزّاد ، فعليْكَ بالنزولِ فى زَوَايا الصالِحِين ، وبيوتِ أبناء السَّبِيل ، وهِىَ كثيرةٌ فى بلادِ الإسلام ، ولسَوفَ تجدُ فيها دائماً الطعَام ، والمبيتَ ، وتنالُ بعْضَ المَال .

عالم المسافرين

ودَّع « ابنُ بطوطة » أباهُ وأمَّه وإخوتَه ، وغادرَ طنْجة برًّا ، فى طريقِه إلى الحَجِّ ، فى يومِ الخميس ، الثانى من شهْرِ رجب ، سنةَ سبعمائةٍ

وخمسٍ وعشرينَ هِجرية ، الخامسِ من شهرِ يونيو ، سنةَ ألفٍ وثلاثمائةٍ وستةٍ وعشرينَ ميلادية ، مع رفقةٍ من المسافرين ، لا يعرف منهُمْ أحدًا .

اجتازَ « ابنُ بطوطة » ، مع المسافرين ، شماليَّ المغربِ والجَزَائر . حتى وصَل إلى مدينةِ « بُجَاية » ، ونزلَ الكلّ ضيوفاً على النّاس : القاضِي على القاضِي ، والفقيهِ على الفقِيه ، والتاجرِ على التاجِر ، وبقِيَ « ابنُ بطوطة » وحيدًا ، فبكَى حزينًا لغُربتهِ . وأشفَقَ عليه تاجر ، فأعطاهُ خيمةً صغيرةً يبِيتُ بِها ، ودابَّةً يركبُها ، وأُصِيبَ « ابنُ بطوطة » بالحُمّى .

وآن وقتُ الرحيل ، فركبَ دَابته محمُوما ، وشدَّ نفسَه إليها بشالِ عمامتِه ، حتى لا يسقُطَ عنها ، قائلا لصاحبِهِ التاجر :

ـ إنْ قضَى الله عليَّ بالموت ، فلتكنْ وفاتِي على الطريقِ إلى أرضِ الحجاز ، فأموتَ شهيدًا .

وفى تُونس ، هطَلَ المطرُ غزِيرًا على المسافرِين ، فتلوّثتْ ثيابُه بالوحْل . وفى الصبَاح منحَه سلطانُ تونس ثوبًا بَعَلْبَكِيًا وصرَّ فى طرْفِهِ دينارَيْنِ من الذَّهَب .

وصحبَ « ابنُ بطوطة » ركْبَ الحُجاج التُّونسى ، ولأنه كانَ أكثرَ من فيهِ من النّاس عِلما ، فقد اختارَه أميرُ الركْب قاضِيَ طرِيق . وفرِح « ابنُ بطوطة » ، فقد حَمَل لقَبَ القاضِي ، وأصبَح من حقِّه أن ينزلَ ضيفاً على القُضاة ، كما تمَنّى أبُوه . وسارَ فى مقدمةِ الركب ، رافعًا العَلم ، يحيطُ به وبالنّاس ، مائةُ فارس .

وراقَتْ له وهو بمدينةِ « صَفَاقس » ، ابنةُ أحدِ أمناءِ (نقباء) الحرف فى تونس ، فخطبها من أبيها ، وتزوّجها . وواصل الركب طريقه إلى



« طرابلس » بليبيا ، ونشب شجار بينه وبين صهرِه ، فطلّقَ زوجتَه وتزوَّج من ابنةٍ لأحدِ طلبةِ العلم فى « فاس » ، وأقامَ للرَّكْبِ كلِّه وليمةَ عُرْس .

عـــروس البحـــر

كانت مصرُ تعيشُ آنئذٍ عهدًا زاهرًا من الرّخاء ، والقوةِ السياسيّة ، فى عهدِ السلطانِ المملوكى : « الناصر محمدِ بنِ قلاوون » الذى بسَط سلطانَه على مصرَ وديارِ الشّامِ والحِجاز . وبهرتِ « الاسكندرية » « ابنَ بطوطة » ، فالتّجارةُ تفِدُ إليها بالمراكبِ من أوربا ، فى طريقها إلى السُّويس ، والدولةُ تجنِى منها المكُوس (الجمارك) ، والمدينةُ عامرةٌ بالمَال ، مزدحمةٌ بالناس ، مليئةٌ بالحركة ، تنتشرُ فيها الفنادِقُ لتجارِ الفِرِنجة ، والمكاتبُ للوكلاءِ التجاريّين .

وطوّف « ابنُ بطوطة » بالمدينةِ ، رأىَ أبوابَ سورِها الأربَعة ، ومنارتَها الشهيرةَ ، وقد تهدّمَ أحدُ جوانبها ، وعمودَ السوارى ، وشاهَدَ قاضِىَ المدينة جالسًا بالمسجِد ، وعمامتُه ضخمةٌ تملأ صدرَ المحراب . وسعَى للقاءِ الأولياءِ بالمدينة ، لينالَ بركاتِهم ، وكانَ بينهمُ الزّاهد خليفةُ الذى قالَ له :

ـ أراكَ تحِبُّ الأسفارَ ، والتجوُّلَ فى البِلاد .

فقال ابنُ بطوطة :

ـ نعم . إنِّى أحِبُّ ذلك .

فقال له الزاهِد :

ـ لابُدَّ لكَ إن شاءَ الله ، من زيارةِ أخِي « فريدِ الدين » بالهِند . وأخِي « رُكنِ الدين » بالسِّند ، ويُنقِذُكَ من محنة ، وأخِي « برهانِ الدينِ » بالصِّين ، فإذا لَقِيتَهم فأبلِغْهُم منِّي السَّلام .

وتعجبَّ ابنُ بطوطة مما قالَه الزاهد ، فلم يكُنْ قد صارَ في حُلمِه بعد ، أنْ يذهَب إلى هذهِ البلاد . ولأنه كانَ يريدُ السَّفَر والفُرْجة ، فقد انفصَل عن ركبِ الحُجّاج التّونسي ، وسافرَ للقاهرة .

الطريق إلى عيذاب

في القاهرةِ ، راح « ابنُ بطوطة » يتجوَّل ، ويتفرَّجُ على جامعِ عمرو ، والمَدارِسِ التي لا يحيطُها حَصْر ، وبيمارستان (مستشفى) بينِ القصرين ، وَزَوَايا المتصوِّفة الفقراءِ المعروفةِ في مصرَ بالتّكايا ، والتي يتنافسُ أمراءُ المَمَالِيك في بنائِها والإنفاق عليْها ، ومدَافنَ بداخِلِها غُرَفٌ للمبِيت فيها كلَّ ليلةِ جمعة . وزارَ مساجِدَ : الحُسينِ ، والسيدةِ زينب ، والسيدةِ نفيسة ، والإمام الشافعي ، ورأى الأهرَامات ، ولقِيَ قضاةَ المذاهِب الأربعة ، شاهدَهم جُلُوسا على درجاتٍ بين يدي السلطانِ الناصر ، يحكمُون بينَ الناسِ في المظَالِم والشّكايات . ولاحظَ أن علمَاء مصرَ قد وفدُوا إليها من جميعِ بلادِ الإسلام ، فقد صارتْ مصرُ أكبرَ مركزٍ للعلومِ الإسلامية ، واتسعَ صدرُها للعلماءِ النازِحين من كافّةِ البلدانِ في العالمِ الإسْلامِيّ .

وغادرَ ابنُ بطوطة القاهرة إلى الصَّعيد ، في طريقِه إلى ميناء « عِيذَاب » علَى البحرِ الأحمر ، كيْ يُبحِرَ منه إلى « جُدّة » على الشاطِئ

المقابل . وباتَ ليلةً فى زَاوِيَةٍ « ابن حِنّاء » بديْرِ الطّين (دارِ السلام الآن) . وكانتْ بهَا من قبل ، فيما يُقَال ، قطعةُ من قَصْعةٍ كانَ يأكلُ فيها الرسُول ، ومَيْلٌ (مِرْوَدٌ) كان يكتحِلُ به ، ومِسَلَّة كبيرةٌ كَانَ يخِيط بِها نعْله ، ومصحفٌ بخطِّ أميرِ المؤمنين « علىٍّ بنِ أبِى طالب » .

وعَبَر ابنُ بطوطَة النيل ، وسارَ إلى « مُنْيَةِ الخَصِيب » (المِنيا الآن) ، ورأى فى « ملَّوى » إحدَى عشرةَ معصرةً لقصَبِ السكر ، ورأى بمنفلُوط أضخَمَ منبرٍ شاهدتْه عيناه ، وجالَس علماءَ « قوص » ، وزارَ فى قلبِ معبدِ الكرنك بالأقصر ، مسجدَ العابِد « أبِى الحجّاج » الأقصرىِّ ، كانَ مسجداً ريفيًّا جميلاً مطليًّا بالجِصّ . وبهرَه السّوقُ التجارىُّ الكبيرُ فى « إسْنا » .

وعبرَ ابنُ بطوطةَ النّيل عند « ادفو » إلى قرية « العَطْوانى » ، واستأجَرَ جِمَالاً تحملُ له الماءَ والزّاد ، وسارَ فى وادِى « العَلَّاقى » إلى عيذاب . كان الطريقُ صحراوِيًّا طوِيلاً ، تكثُرُ فيه الضِّباع . وباتَ به إحدى ليَالِيه مع الحُجّاج ، يطارِدُ الضباعَ بالسّيُوف والنِّيران . ووصلَ إلى « عِيذابِ » بعدَ ثمانيةَ عشرَ يوْمًا .

حــــرب صـــــغيرة

كانت « عِيذاب » تقعُ فى أرضِ قبائلِ « البُجَاة » (البَشَّارية الآن) . وكانت آبارُها مالِحَةَ المِياه . وكان البجَاويُّون ينتشرُون على طولِ ساحلِ البحرِ الأحمر إلى السُّودَان . وكانت عِيذابُ قد صارتْ طرِيقًا للحجِّ من مصر ، قبْلَ ثلاثةِ قرون ، فقد كانَ الصليبيُّون يقطعُون

الطريقَ على حُجّاج مصرَ عبرَ سيناءَ والعَقَبة . ومع أن مَمَالِك الصليبيِّين قد زالتْ من الشام ، فقدِ استمرَّ المصريُّون يسافرُون للحجِّ عن طريقِ « عِيذاب » ، اختصارًا للطّرِيق .

كان البجاوِيُّون فُرسانا ، سُمْرَ الألْوان ، أمناءَ وشُجْعَانًا ، وكانُوا ماهِرين فى التّجارة ، ويضعُون على رؤُوسِهم عصائِبَ حمراء ، ويرتدُون ثيابًا صفراء ، ويركبُون الجِمالَ على سُرُج مثلَ سُرُجِ الخَيْل . وكانُوا يسيطرُون على الأمنِ على طولِ سواحل البحر ، نظيرَ مقاسمتِهم لوالِى السّلطانِ فى إيراد ميناءِ عِيذاب ، يأخذ هو ثلثَه ، ويأخذُون هم ثُلثَيْه .

وتنشُبُ حربٌ صغيرةٌ بين « الحَدْرَبِيِّ » سلطانِ البُجَاة ، ووالِى السلطانِ المصرىّ فى عِيذاب ، ينتصرُ فيها البجاويّون ، ويحرقُون السُّفن . وعندئذ يبيعُ « ابن بطوطة » زادَه ، ويعودُ ومعه الجِمالُ إلى صعيد مصر ، وقد يئِس من الحجِّ فى عامِه ، ويركبُ من « أدْفو » مركبًا تسيرُ به فى النيلِ إلى القاهرة ، فى وقتِ الفيضان ، ويسافرُ إلى سيناء ، مارًّا ببلبِيس والصالحيةِ ، فى طريقهِ إلى الشّام .

الطــريق إلى دمشــق

على طولِ الطريقِ فى سيناء ، كان ابنُ بطوطة يبيتُ لياليَهُ فى خَاناتِ على الطريق . وكانتْ بجانبِ كلّ خانٍ ساقيةٌ للسَّبيل ، وحانوتٌ يشترِى منه مَا يحتاجُه هو وركوبتُه .

وبلغَ نقطةَ « قَطْيا » على الحدودِ بين مصرَ وفلِسطين . وقدَّم لرجالِ الحدودِ براءة (وثِيقةَ) المرور ، ولم يدفعْ لهم ضريبةَ الزكاة ، لأنه لم يكنْ من التّجار .

اجتاز ابنُ بطوطة مدينةَ « غَزّة » إلى « الخليل » . كانت مدينة صغيرة ، فى بطن وادٍ ، كان مسجدُها شاهقَ الارتفاع ، أنيق الصَّنعة ، مَبْنيا من الصخْر ، وفى أحد أركانِه صخرَةُ يبلُغ قطُرها تسعَة أمتار ، وزاَر بَغارٍ فى المسجد قُبور عددٍ من الأنبياء ، وقرأ ما عليْهما من كتاباتٍ ونقوش . ثم توجَّه إلى القدس ، وزار المسجدَ الأقصى ، ودخَل قُبّة الصَّخْرة ، وأخذ الطريقَة الرِّفاعية على يد الشيخ « عبد الرحِيم الرفاعىّ » وارتَدى ثياب التصوُّف ، وراح يتجوَّل فى أرضِ فِلسطِين ، وقد خرب الكثيرُ من بلادِها ، فَمَسجد « عمر » فِي « عَسقلان » لم يبَق منه سِوى جُدرانِه . وعكّا قد خرِبت ، وخرِب سورُها . ويزورُ قبرَ أمِين الأمة « أبِى عبيدة ابنِ الجراح » فى غوْر الأردُن ، ويبيتُ بزاويةٍ عندَه ، ويزورُ بطبريَّة الجب الذى يقالُ إنه هو الجب الذى القِى فيه إخوة يوسُف به ، وكان جبًّا كبيراً عميقاً ، تتجمَّع فيه مياهُ الامطار ، ويشرب من مائه ، ويصلّى بمسجدٍ صغيرٍ بجانِبه ، كانت بصحْنه زاويةُ للعبادة ، ويرَى بحيرةَ طبريَّة .

ويُواصل ابنُ بطوطة رحلتَه مع الساحِلِ إلى لبنان فيرَى مدينة « صُور » التي يحيطُ بها البحرُ من ثلاثِ جهات ، وصيْدَا ، وبيْروت . وكانتْ بيروتُ ما تزالُ مدينةً صَغِيرة .

وشرَّق ابنُ بطوطة ، فزارَ « حِمص » ، و « حَمَاةَ » الشهيرةَ بنواعِيرها (سواقِيها) و« معرَّة النعمان » ، وزارَ بها قبرَ الخليفةِ الراشدِ « عمر بنِ عبدِ العزيز » ، وزارَ « سرمين » الشهيرة بصناعةِ الصابُون من زيتِ الزيتون ، فى قطَعٍ مربعةِ الشكل ، أومستطيلَة ، وقد أخذَ الغربُ هذِهِ الصناعةَ عن العرَب .

وعجِبَ ابنُ بطوطة من أهلِ « سِرمين » وضحِكَ عليهم ، كان أهلُها كثيرى السِّباب ، عالِى الأصوات . وكانوا يتشاءَمُون برقْمِ « عشْرة » ، وإذا عدُّوا نقودًا ، وبلغُوا الرقْمَ « تسعة » قالوا : تِسعة وواحد ، تسعة واثنان .. وهكذا .

ورأى قلعة « حلَب » الشهْباء ، وتجوَّلَ بين بساتِينها ، وسمعِ ما قيلَ فيها من أشعار ، ثم اتجَه غربًا إلى « أنطاكية » التى استردّها الظاهرُ بيبرس يوماً من الصَّليبِيِّين ، وباتَ بها فى زاويةِ « حبيبِ النجار » ، ورأى بها شيخَ الزّاوية ، وقد جاوزتْ سنُّه المائة ، وما يزالُ قويَّ البنْيان ، وكان معه ابنُه وقد جاوَزَ الثمانين ، وصارَ محدَوْدَبَ الظهْرِ ، يتّكِىءُ فى سيرِه على عصا ، فظنَّ ابنُ بطوطَة أنَّ الولدَ منهما هُوَ الوالدِ ، والوالِدَ هو الوَلَد . وزارَ بالقُربِ من « أنطاكية » حُصُون الاسماعيلية الفِدَاوِيّة ، وكان السلطانُ الناصِر يستخدمُهم فى قتلِ خصومِهِ بكافةِ الأقطار .

لا تخف يا بنى

بُهِرَ ابن بطّوطة بجمالِ دِمشق ، وغَوْطةِ (بساتين) دِمَشق ، والجامعِ الأُمَوِىِّ بدمشق ، وأبوابِ دمشق ، وما بِها من أسواق ، ومدارسَ ، وزوايَا ، وعلماءِ ، ومتصوِّفةٍ .

دخل ابنُ بطّوطةَ دِمشق ، فى اليومِ التاسعِ من شهرِ رمضان ، وقد مضَى على خروجِه من طنْجة أكثرُ من عام . وكانَ ما معَه من مالٍ قد قارَبَ على النفاذِ ، فأخذَ يتجوَّلُ قلِقا فى شوارع دمشق . ورأى غلامًا صغيراً يبكِى ، فقد سقَط من يدِه صحنٌ من الفُخّار الصينىّ ، وتكَسَّرَ . فجلسَ يبكِى خوفًا من سيدِه ، فأشارَ عليه الناسُ بالذهاب إلى صاحب

أوْقَاف الأواني ، ومعهُ شظايَا الصّحْن ، وسارَ ابنُ بطوطة خَلْفه ، ورأى صاحِبَ أوقافِ الأواني يأخذُ الصحنَ المكسورَ من الغُلام ، ويُطيِّب خاطرَه ، قائلاً له : لا تخفْ يا بني . ويعطِيهِ نقُودًا يشترِى بها صَحْنا سِواه . فتأثرَ ابنُ بطّوطة بما شهدَه من رِقّةِ النَّاس ، ورحمتِهم ، وحَدَّث نفسَه أنهُ لن يضِيعَ فى دِمشق . وسألَ صاحِبَ أوقافِ الأوانى عن رجلٍ من أهلِ الخير ، فدلَّه على مدرس المالكِيّة بالجامعِ الأُمَوِيّ « نورِ الدين السَّخَاوِىّ » .

ورحَّب نورُ الدين بابنِ بطوطة ، وصارَ يُفطِرُ عندَه فى ليالِى رمضان . وتغيَّب عن دارِه فى الليلةِ الخامسة ، فذهب نورُ الدين إليه حيثُ ينزِل ، فوجدَه مصابًا بالحُمَّى ، فقالَ له نورُ الدين :

ـ إحسِبْ دارِى كَأنَّها دارُك ، أو دارُ أبيك ، أو دارُ أخِيك .

وحمَلَه إلى بيته ، وأحضرَ له طبيبا ، كتبَ له أدويةً ، وأغذيةً . وظلّ ابنُ بطّوطة مُقِيما عندَه إلى يومِ العِيد . وكان قد شُفِىَ من مرضِه ، وآن لهُ أن يذهَبَ إلى الحَجِّ ، ولم يكنْ قد بقِىَ معهُ مال ، فزوَّده نورُ الدينِ بالمالِ ، والزَّادِ ، واستأجرَ له جَمَلاً يركبُه ، وآخرَ يحمِلُ زادَه ، وأوصَاه بالدعاءِ له فى البيْتِ الحَرَام ، وفى جَبَلِ عَرَفات .

الطريقُ إلى مكة

عند قَريةِ « الكُسْوة » ، اجتمَعَ ركبُ الحُجّاجِ الشامِىُّ . وكان الركبُ يضمّ كثيرين قادِمِين من العراقِ ، وآسْيَا الصُّغرى ، ومصرَ ، وخُراسَان ، وبلادِ ما وراءَ النّهر بالسِّند . وكانَ الركبُ يرأسُه أميرٌ من كبارِ أمراء المَمَاليك ، تحرسُه قواتٌ عسكريَّة من فُرْسَانِ العرب . وسارَ الرَّكْبُ

عبرَ وادِي « حُوران » إلى الجنوُب من دِمشق ، في مَجْموعاتٍ ، يرأسُ كلَّ مجموعةٍ منها أمِير .

ورأَى ابنُ بطّوطة في رحلتِه إلى مكّة ، مواطِنَ لها ذكرياتٌ دِينِيّةٌ وتارِيخِيّة ، في نفُوسِ المسلِمين . رأى مدينةَ « بُصْرَى » التى نَزَل بها الرسُول ، حين كانَ في تجَارةٍ للسيدةِ خدِيجةَ قبلَ أن يتزَّوج بها ، ورأى مبرَكَ ناقةِ الرسولِ ببُصرى ، وقد بُنِيَ عليه مسجدٌ عظِيم ، وشاهَدَ حصْنَ الكَرَك ، أو حِصْن الغراب ، وكانَ مدخلُه منحُوتًا في الحَجَرِ الصَّلْدِ ، وكان السلاطينُ يلجأُون إليه عندمَا يتمرَّد عليهِم الأمراء . ورأَى العينَ الشحِيحَة الماء في « تبُوك » ، وكانتِ الموردِ الأكبرَ للماء ، يتزوَّد به المسافِرون بما يكفِي أكثرَ من أربعةِ أيام ، في صحراءَ قاحلة تمتدّ إلى « العُلَا » تعزِف بها رياحُ السَّموم ، ورأى ديارَ ثمودٍ منحوتةً في جبالِ من الحَجَرِ الأحمر ، يتفادَى المسافِرُون الشربَ من مائِها . وشاهدَ مدائنَ صالح خارجَ المدينةِ المنوَّرة ، وزارَ المسْجِدَ النبوِيّ بالمدِينة .

وعندَ نهايةِ حرمِ المدينة ، بالقربِ من مسجدِ « ذِي الحُليفة » ، أحرمَ ابنُ بطّوطَة بالحجِّ ولبَّى مع الملبِّين في الوُديانِ والجِبال ، وقد ارتدَى ثيابَ الإحرامِ البعْلبَكِيةِ البيضاء ، واجتازَ السهْل الذى جرَت فيه غزوةُ بدْر ، وقد صارتْ به حدائقُ نخِيل ، وشُيِّدَ به حِصْنٌ منيعٌ لا يصِلُ إليه أحد ، إلا من بَطْنِ وادٍ بينَ جِبال . ورأَى ببدرٍ عينهَا الفَوَّارةَ بالماء ، ورأى « القَلِيب » الذى أُلْقِيَ فيه بقَتْلى المشرِكين ، وصلّى في مسجدِ بدْرٍ عندَ نَخْل القَلِيب .

وبلغَ مكةَ مع الركبِ ذات صباح ، وعندئذٍ غمرتْهُ أشواقُ الروح ، وطافَ مع الحُجَّاج طوافَ القدوم حولَ الكعبةِ الشريفة ، ونزلَ ضيفاً

بالمدرسة المُظَفَّرِيَّة ، وشاهدَ أبوابَ مكة ، وأبوابَ المسجِدِ الحرام ، والمِيزاب ، والحجرَ الأسود ، ومَقَامَ إبراهيم ، والمآذِن ، والصَّفا والمروة ، وشرِب من ماءِ زمزم ، ورأى غارَ حِراء الذى نزلَ فيه الوحْىُ على الرسولِ أولَ مرة . وقضى شعائِرَ الحجِّ إلى طوافِ الوَدَاع .

صحـــراء تحكمها القبائل

غادرَ ابنُ بطّوطةَ مكة ، إثرَ وقْفةِ عَرَفات بعشرةِ أيام ، مع ركبِ الحُجَّاج العائدِ إلى العِراق . كان يريدُ أن يَرَى بلاداً جديدةً فى أرض الله ، فهو مثل أجداده العَرَب جوَّاب آفاق ، يُسْئِمُه طولُ المقام ، وتُضْجِرُه مُلازَمَةُ المَكان .

كان أميرُ ركبِ العِراق هو « البَهْلوانُ بنُ الحُوَيّجْ » ، وكان صُوفِيا من أهل المَوْصِل ، من أتباعِ الطريقَةِ الصُّوفية القَلَنْدَرِيَّة ، وكان يحلِقُ ، مثلَ أتباعِ طريقتِه ، شعرَ لِحْيَتِه وحاجبيْه . وأكرَمَ البهلوانُ ابنَ بطوطة ، فأركبَه هوْدَجًا على جمَلٍ يسيرُ بجِوارِه .

لم يكنْ قلبُ الجزيرةِ العَرَبية يخضعُ فى زمانِ ابنِ بطّوطة لسلطان دولة ، فعاد إلى عصرِ القبائِل الأوَّل قبْلَ الرسُول ، وإنْ ظلّ أهلُه على دينِ الإسلام . ولذلك كانَ ركبُ الحُجَّاج العراقِىِّ يسيرُ فى حراسةِ الفُرسان ، وَلشدَّةِ الحرِّ ، كان الركبُ يسيرُ ليلا ، يُحِيطُ به حَمَلَةُ المَشَاعل ، ويستريحُ نهاراً ، حيثُ تُوجَدُ آبارُ ماءٍ لأبناءِ السبيل ، فيقامُ سُوقٌ متنقل ، وتجرِى حركةُ البيْعِ والشّرَاء ، وتُوقَدُ النّيران تحتَ قُدُورٍ عظيمةٍ من النُّحاس لطَهْوِ الطَّعَام .

اجتازتِ القافِلة « وادِى العَرُوس » ، وأرضَ نجْدٍ الطيبةِ الهَوَاء . وكانت الجِمَال تسيرُ فى صُفُوفٍ كأنّها القِطارات ، مارةً بالقُرى والآبار ، حتى وصَلَت إلى « القادِسيّة » شرقِىَّ نهْرِ الفرات . وكانتْ فيما مضى مدينةً كبيرة ، حدثَتْ عندها المعركةُ الفاصِلة بيْنَ المسلمينَ والفُرس التى انهارَتْ بعدَها إمبراطوريةُ كِسرى ، وصارتْ قريةً كِبيرة ، عامرةً بحدائقِ النّخِيل .

ورحَل « ابنُ بطّوطة » مع القافلةِ إلى الروضةِ الشريفةِ بضريحِ الإمام علىٍّ بالنَّجَف ، ورأى الأسْواق والمدارسَ والزوَايا المكسُوّةِ الحيطانِ بالقِيشانى . وكانت للروضةِ عَتَبَةٌ من الفِضّة ، وكانتْ قُبَتُها مكسوَّةً بالحرير ، وقد فُرِشت تحتَها البُسُط ، وتدلّتْ منها قنادِيلُ الذهَب والفِضّة ، الكبارُ والصّغار ، وتحتَ القبَّة كانت مصطبةٌ كبيرة مكسوةٌ الخشبِ بصفائِح الذّهبِ المنْقوشة ، مسمّرة بمساميرِ الفضة ، ويقالُ إن تحتَها قبرُ آدم ، وقبرُ نوح ، وقبرُ الإمام علىّ . وكانتْ ثمةَ طسُوت من الذهبِ والفضِة بها ماءُ الوردِ والمِسك والعنبَر ، وغمس ابنُ بطوطة يديْه فيها ، ومسحَ وجهَه بها تبرُّكا .

حلْقــة ذِكْــر

وانفصَل ابنُ بطوطةَ عن ركبِ الحُجّاج العِراقى . توجَّه الركبُ إلى بغدَاد ، وتوجَّه هو مع عربِ خَفَاجة إلى مدينةِ واسطٍ بين نهرىْ دِجلةَ والفُرَات . عبَرَ الفُرات فى منطقةِ (مستنقعات) مليئةٍ بالقصب ، يسكنُها أعرابٌ قطاعُ طريق ، لكنه كانَ آمِنا فى حمايةِ أميرِ القافلةِ الخَفَاجِيّة « شامِرُ بنُ دَرَّاج » . وانشغلتِ القافِلةُ بالتِّجارة خارجَ « واسِط » ، وذهَب

هو إلى قريةِ « أمّ عُبَيْدَة » ، لِيزورَ بها قبرَ الوَلِىِّ « أبى العباسِ أحمد الرفاعى » ، ويُرحِّبُ به حفيدُه ، ويُشرِكه معهُ فى حلْقة ذِكر إثرَ صلاةِ العشاء ، وسطَ لهيبِ النِّيرانِ فى أحْمَالٍ من الحطَب ، وكان بعضُ الراقِصين يأكلُ النار ، وبعضُهم يقطعُ رأسَ الحيَّةِ بأسنانِه .

وانحدَر ابنُ بطوطةَ إلى البَصرة ، وصلّى بمسجدِها المرتفعِ الفسِيح ، ورأى به مُصحَفًا كان الخليفةُ « عثمانُ بنُ عفان » يقرأ فيه حينَ قتل . ويأكلُ تُمُورَ البصرةِ المسكّرَةَ الرخِيصةَ الأسعار ، ويشعرُ بالاستياءِ حين يُصلّى الجمعةَ بمسجدِ البصرة ، فَخَطِيبُ المسجِدِ كان كثيرَ الأخطاءِ فى النّحو ، وقد كانتْ رِياسةُ علمِ النحوِ فى يدِ علماءِ البصْرة ، قبلَ قرون .

العـــابد الصيّـــاد

ويَرْكب ابنُ بطّوطة قارِبًا ينحدِرُ به إلى « الأُبُلّة » التى صارتْ آثاراً خَرِبة ، بينَ بساتِينَ متصلةٍ ونخِيلٍ ، والبَاعة على الشاطِئين جالسُون فى ظِلالِ الأشجار ، يبيعُون الخبزَ ، والسّمك ، والتّمرَ ، واللبنَ ، والفواكهَ . ويبلغَ القارِبُ مدخلَ الخليجِ العربِىِّ ، فعبَر بحرَ الخليجَ عرضًا إلى « عَبَدَان » على الشاطىءِ الغربِىِّ لإيران ، وكانتْ بهَا زاويةٌ لرجُلٍ عابِدٍ فى أرْضٍ سَبِخَةٍ .

كان الرجلُ يُصلّى حينَ دخلَ عليهِ ابنُ بطّوطة ، فأوجزَ فى صلاتِه ، وسلّم عليه ، وأخذَ بيدِه ، وأدرَكَ أنّ ابنَ بطّوطة رجلٌ رحَّالة ، جواب آفاق . فقالَ له :

ـ بلَّغك الله مُرادَك فى الدُّنْيا والآخِرة . سِحْتُ فى الأرضِ مثلَك ، ولم أدعْ ديارًا إلا دخلتُها ، ثم لزِمت هذا المكان ، وانقطعتُ فيهِ للعِبادة .

كانَ من عادةِ عابدِ « عَبَدان » ، أن يغادِرَ زاويته قُبيلَ كلِّ غروب ، ويوقِدُ بمساجدِ عَبَدان المَسَارِجَ ، وكان من عادتِه أن يذهَبَ إلى الخليجِ ويصيدَ سَمَكا ، يعودُ به لطعامِه ، ولضيوفِهِ . وباتَ ابنُ بطوطة فى تلكَ الزاويةِ ليلةً ، ثم ركبَ البحرَ إلى بلْدةِ « ماجُول » وسارَ براً إلى مدينةِ « رامِز » حتى بلغَ مدينةَ « تُسْتُر » عند أولِ الجِبال ، ونزلَ ضيفًا بمدرسةِ الشيخِ « شرفِ الدين موسى » .

كان الشيخُ فقيهَ فقهاءِ تستر ، وواعظَها ، وإمامها . ورآهُ جالسًا يصلِّى بالناسِ فى بُستان ، والتائِبون يتوبُون على يديْه ، وهو يجُزُّ شعرَ ناصيةِ كلِّ تائب . ورأى الناسَ يتقدَّمُون إليه برقاعٍ مكتوبةٍ ، يستفتُونَه فيها فى أمورِ الدِّين ، وهو يُجيبُهم عن أسئلتِهم سُؤالاً بعْدَ سُؤال .

كلمة حق

وغادَر ابن بطوطة « تسْتر » ، واجتازَ ، فى ثلاثةِ أيام ، جبالاً شامخة ، ودخَلَ مدينةَ « أيْذِج » ، ورأى بها سقِيفةً مرتفعةً ، مزدحمةً بناسٍ واجِمينِ وحَزَانى ، فقد ماتَ ابنُ حاكم المدينةِ ، وهابَ رِفاقُه دخولَ السقيفَةِ ، لكن ابْنَ بطّوطة ، تجرّأَ ودخَلَها ، وجلَس بالقربِ من الحاكِم ، على سجادةٍ خضْراء ، وكان الحاكمُ جالسًا حزِينا على وسادَة ، وأمامَه آنِيتَان ، إحداهُما من الذّهب ، والأُخْرى من الفِضة ، يشرَبُ منهُما بينَ حينٍ وآخر . وبدَا فى حالةٍ من السُّكر . وسألَه الحاكِمُ عن حالِه ،

وعن بلادِه ، وعن مصرَ ، وبلادِ الحِجاز . واسْتَاءَ ابنُ بطوطة لحالِ الحاكم ، فقالَ لهُ بشجَاعة :

ـ أنتَ يا مولاى من أبناءِ السلطانِ أتابك أحْمد ، المشهورِ بالصلاحِ والزّهْد ، وليسَ فيكَ ما يعِيبُك سِوَى هذيْن الإناءَيْن .

وأرادَ ابنُ بطوطة الإنصرافَ ، فأمره بالبقاءِ ، وقال له بخَجَل :

ـ الاجتماعُ مع أمثالِكَ رحْمة .

وهمَس شيخُ المشايخِ فى « أيذِج » لابنِ بطوطةً قائِلا :

ـ ما قُلْتَه لحاكِمِنا لم يكنْ أحدُ يقدِرُ على قولِه لَه ، وإنّى لأرجُو أن يْؤثِّر قولُك فيه ، وَيَتُوبَ إلى الله .

وزوَّد الحاكِمُ ابنَ بطّوطة وأصحابهَ بمالٍ ، فسارُوا شَمَالا ، مجتازِين بلادَ غربِىِّ إيران إلى أصفهان . وكانَ أهلُها فى قتالٍ وفتَنٍ بسبب مذاهِبِهِم فى الدِّين . كانوا حِسَانَ الوجُوه ، شُجْعانا ، ألوانُهم بيضاءُ مشربةٌ بحُمرة ، وكانوا كرماءَ يتنافسُون فى الكَرَمِ للأضياف ، ويتشاجَرُون عليْهم ، ويُزَايِدُ بعضُهم على بعضٍ فى إكرامِ الضّيْف ، فأكل على موائدهم المِشمش ، والسفرجلَ ، والعِنَبَ ، والبطّيخ ، وكان يأكلُه لأولِ مرة . وأهداهُ عابدُ أصْفهانَ جُبةً بيضاءَ مبّطنةً ، وألبسَه طاقِيّتهُ إكرامًا له .

وعادَ ابن بطّوطة ينحدرُ مع صحبِه من أصْفهانَ جنوبًا إلى شِيرازَ . وجَدَها مدينَة عامرةً بالمبانِى ، والأسواق ، يفوحُ كلّ شىءٍ فيهَا بالنّظافة .



قاض وشاعر

كانتْ شِيرازُ في سهلٍ تحيطُ به البساتين ، وتمرُّ حولَها خمسةُ أنهَارٍ ، بينَها نهرٌ عجِيب هو نهرُ « رُكن آباد » ، فمياهُه العذبَةُ باردةٌ في الصّيف ، دافئِةٌ في الشّتَاء ، وتنحدرُ من سفحِ جَبَل . وكان أهْلُ شِيراز أهلَ صلاح ، ونساؤُها يلبِسْنَ الخِفاف ، ولا يخرُجْن إلا متبرقعات ، ويجتمعْن بالآلافِ في المسجدِ الأعظم ، والمراوحُ بأيدِيهِن في أيامِ الاثنين والخمِيس والجُمعة ، يستمعْنَ إلى واعظِ المسجِد .

وزارَ ابنُ بطّوطة قاضِيَ شِيرازَ « مجدَ الدينِ إسماعيل » ، فأنزلَه ضيفًا بدارٍ منفردةٍ بمدرسةِ شيراز . وجاءَ رسولٌ من قِبلِ سلطانِ العِراق المغُوليّ المسلم أبِي سعيد ، سلطانِ الدولةِ الإيلخَانيةِ بفارسٍ والعِراق ، ودخلَ على القاضِي مجدِ الدين مع خمسةِ قُوّادٍ في مجلسِه ، ونزعَ غطاءَ رأسِه احترامًا للقاضِي ، وقعَدَ ممسكاً إحدَى أذنيْه بيديْه إظهاراً لاحترامِه للقاضي ، وظل على حالِه هذهِ طولَ جلوسه ، على عادةِ المغُول مع كبرائهم .

كانت للقاضِي « مجدِ الدين » مهابةٌ يخَافُها السلاطِين ، فقد حاوَلَ سُلطانٌ ، قَبْلَ « أبِي سعيد » ، أن يفرِضَ على مدائِنَ عراقِ العَجَم « غربيّ إيران » وعراقِ العَرَب « العراق الآن » مذهَبَ الرَّوَافض ، ويتركُوا مذهبَ أهْلَ السُّنّةِ ، فغضِبَ قضاةُ المَدَائِن ورفَضُوا أوامِرَ السُّلطان ، فسِيقُوا مكبَّلين إلى حضرتِه . وأمرَ السلطانُ بإلقائِهم واحدًا بعدَ آخر ، لكلابٍ ضِخَام مفترسَة . وبدأَ رجالُه بالقاضِي مجدِ الدين . ساقُوه إلى السّاحَة ، وأطلقُوا سلاسِلَ الكِلاب الجائعةِ المُفترسة ، واندفعتِ الكلابُ نحوَ القاضِي مجدِ الدين ، وحينَ وصلَتْ إليه ، حرّكَتْ أذْنَابَها ، وجثَمت

بيْنَ يديْه . وارتفعَ صِياحُ الحُرَّاس والناسِ مكبِّرينَ ، فسُحِبَتِ الكِلابُ من السَّاحة ، ونزلَ السلطانُ حافِيَ القدمَيْن ، وأخذَ يُقبِّل قدمَى القاضِى ، وخلعَ عليه ثيابَه السُّلطانية ، وصحِبَه إلى قصرِه . وأمرَ ببقاءِ الناسِ على مذهبِ السّنةِ والجَماعة ، وصارَ الناسُ لا يخاطِبون القاضِى مجدِ الدين إلا بلقب « مَوْلانا أعظَم » .

وزارَ ابنُ بطوطة بخارجِ شيراز قبرَ الشيخِ الصالح « السَعْدِىِّ » الشاعر ، صاحِبِ ديوان : « جولستان » . ومشى فى بُستانٍ مليحٍ ، عند رأسِ النهرِ الكبير . وكانَ الناسُ عند قبرِه ، يغسلُون ثيابَهم فى أحواضٍ صغيرةٍ من المرمر ، والفقراءُ جالسُون إلى موائدَ مبسوطةٍ يأكلُون الطعام .

وغادرَ ابنُ بطوطة شيراز إلى كازَرُون ، وذهبَ لزيارةِ العابدُ أبى اسحاقِ ، الذِى قِيل له عنه ، إن مُسلمى الصِّين والهند يُعظِّمونه ، ويُنذِرُ له البحارةُ النُّذُور ، عندما تهُبُّ عليهمُ العواصف ، أو يخافُون غاراتِ القَراصنة ، فى البِحَار .

بقـايا عصـــر

من غربىِّ إيران ، عبرَ ابن بطّوطة نهرىْ دِجلة والفراتِ إلى « الكوفة » ، مغادراً أرضَ عراقِ العجمِ إلى عراقِ العرَب . وعبرَ « الحِلَّة » إلى « بغداد » . كانَ نهرُ دِجلة يشقُّها ، وعليْه جِسْران . ولم يكنْ قد بقِىَ الكثيرُ من مجْدِها . لم يعُدْ باقِيا منها سِوَى اسمِها . فالعمائرُ هُجِرَت . والمدارِسُ خَرِبت . وَزَعَامةُ العِلْم قد انتقلتْ منها إلى القاهرةِ ، ودمِشق ، وتِبْريز . ومع ذلَك ظلّ أهلُ العِلم فيها يحافظُون على

هيبتِهم العِلمية . لكنّ المساجدَ كانتْ ما تزالُ باقيةً ، والحماماتُ ما تزالُ رائِعة . وكانت بها خلْواتٌ للمستحمِّين ، وفى كلّ خلوة منها أنبوبَان للماءِ البارِدِ وللماءِ الساخن ، وحوضٌ للاغتسالِ بجانبِهِ ثلاثُ مناشِف ، وزارَ بها قبورَ اثنيْنِ وثلاثينَ خليفةً عباسيًّا ، كان آخرُهم الخليفةُ المستعصِم الذى ذَبحه التّتر بالسيْف ، بعْدَ أيامٍ من دخولِهم بغداد . وزارَ قبرًا الإمام أبِى حنيفة ، والإمام ابن حنبل ، وقبرَ الإمام الكاظِم ، وكان فى داخلِ بُستان ، وعليه ضريحٌ من الخشَب مكسوٌّ بالفِضّة .

ســوق الجواهــر

والتقَى ابنُ بطوطةَ بالسلطانِ أبِى سعيد ، سلطانِ فارِسَ والعِراق ، وكان أبُوه التّترى « بهادِر » قد أسلمَ ، فأسلَم بإسلامِه ، وورِثَ المُلك من بعدِه ، كان أبُو سعيد صغيرَ السِّن ، جميلاً ، أمْردَ الوجه . وصحِبه أبُو سعيد معهُ فى مركبٍ للنزهةِ بدِجْلة ، تتبعُها مراكبُ أخرى بِها المطربُون والعازِفون ، ثم صحِبَه معه فى موكبٍ مهِيب ، إلى « تبرِيز » فى أقصىَ الشمالِ الغربى لإيران ، شرقىَّ نهرِ دجلة ، تحيطُ به العَسَاكِرُ ، والطبولُ ، والنَّقَّاراتُ ، والأمراءُ والأَعْلام ، مع الخاتُون (الملكة) زوْجَةِ أبِى سعيد . ودامَ السّفر عشرةَ أيّام .

وأبدَى ابنُ بطّوطة للسلطانِ رغبتَه فى الحجِّ ، فأعطاهُ زاداً وحِصَانا ومالاً ، فعادَ إلى بغداد . وكانَ قد بقِىَ على موسِمِ الحجِّ شهرَان . فقرَّر ابنُ بطوطةَ أن يُواصِل فيهِمَا الارتحالَ إلى شمالِ العراق . فرأى « سامِرّاء » وقد صارَت خرابا ، وقلْعة « تكْرِيت » الكثيرةِ المساجِد ،

الحسنةِ الأسواق ، وحصنًا له أبراج ، كلّه من الحديد ، بقريةِ « العَقْر » ، و « قيَّارةً » سوداء ، ينبُعُ من أرضِها القَار ، ويُكوِّن بِركاً كبيرةً سوداءَ (من النَّفط) يوقِد فيها الناسُ النَّار ، فتنعَقِدَ ، وتجِفَّ ، وتصيرَ قاراً ، تُطلىَ به جدرانُ السُّفن ، وأسفلُ حوائطِ الحمّامات ، فلا ينفُذُ منها الماء ، ونافورةً تحتَ قبة ، بصحْنِ مسجِد ، يندفِعُ منها الماء من عينٍ أرضيَّة فوَّارة ، ورأى مدائنَ « نصيبِين » ، و « داراً » ، و « مَارَدين » . وفى « مارِدَين » لقِيَ القاضى « بُرهان الدين الموْصلى » ، وكان قاضِياً مهابا ، يخافُ الناسُ الاحتكامَ إليه ، فيسارعُون إلى فضَّ ما بينَهمْ من منازَعات . وكرَّ « ابنُ بطّوطة » عائداً إلى بغدادَ ، فوجَدَ ركبَ الحُجَّاج العراقِى على أُهْبَة الرحِيل .

بـريّة الغـــزلان

انضمّ « ابنُ بطوطة » إلى ركبِ الحُجاج . وسعِد إذْ وجدَ أميرَ الركبِ ، هو صديقُه « البهلوان محمد الحويْج » . وأُصِيبَ وهو بالكوفة بإسهالٍ حادٍّ ، لازمَه طولَ الطريقِ إلى مكة ، ولم يُشفَ منه إلا إثرَ عودتِه من المبِيت فى « مِنى » .

كان المرضُ قد أجْهدَ « ابنَ بطوطة » فبقِى بعدَ الحجّ مجاوراً للكعبَة . وكان ينزِلُ ضيفًا بالمدرسةِ المُظفرية ، وينعمُ بطيبِ العيش ، وبالتفرُّغ للعبادةِ والطّواف ، ولقاءِ المجاورِين للكعبةِ من أبناءِ مصرَ والمغرِب .

واستردّ ابنُ بطوطَة عافيتَهُ بعْدَ شهور ، فغادر مكةَ إلى اليَمَن ، فى سفينةٍ متوسطةِ الحجم ، عميقةِ الباطن ، وهبَّت عاصفةٌ بحريةٌ حَمَلتِ السفينَةَ بعيداً عن اليمنَ إلى « رأسِ دوائر » ، بين ميناءَىْ : « عِيذاب » و « سَوَاكن » . ولم يشعرْ بالضّيق ، فهو رحّالة ، تستوِى عندَه كلّ البلاد . ونزلَ على الشاطىء ، وآوى إلى مُصلًّى من عريشِ القصَب ، كان بجانبِه الكثيرُ من قشورِ بيضِ النعام مليئةً بالماء .

ورحلَ مع البجاوِيِّين إلى « سواكن » فى بريَّة كثيرةِ الغزلان ، وعجِبَ لأنّ الغِزلان لا تفرُّ من الناسِ . وزالتْ دهشتُه حين علِمَ أن البجاويِّين لا يصيدُونها ، ولا يأكُلون لحومَها ، ولذلك أمِنتْ لهم ، وأنِسَت إليْهم .

وركبَ البحرَ من سواكِن فى سفينةٍ أخرى حملتْه إلى اليَمن ، وكانتْ فى حكمِ « بنِى رسول » ، وزارَ مُدن : حَلْى ، وزبِيدٍ ، وتعز ، وصنعَاء . وكان المطرُ غزيراً يغسِلُ شوارعَ صنعاءَ المبلّطة . وعاشَ أيامًا بينَ بساتينِ صنعَاء ، ينعَمُ مع أهلِها بالطرَبِ والسمرِ والطعامِ فى الخَلاء . ثم ارتحلَ إلى « عدن » .

منافسة على كبش

كانت عدنُ شديدةَ الحر ، تحُفُّ بها الجبال ، مملوءةً بالصّهَاريج التى تَجْتمعُ فيها مياهُ المطرِ متدفقاً من الجِبال . وكانتْ مرسىً لسفنِ الهِند ومصر ، يأتِى إليها تجارُ البَحْر من قاليقُوط والسُّويس . وكان أهلُ عدن من التجارِ ، والحمّالين ، وصيادِى الأسْمَاك . وكانَ تجارُ عَدَن واسعِى

الثّراء ، لهم سفنٌ تجارِية خاصةً تجوبُ البحرَ الأحمر ، والمحيطَ الهِندِي . وعجِبَ ابنُ بطوطة إذ رأى حبَّ أهلِ عدن للمزايدةِ ، وضحِك حينَ شاهَدَ ما شاهدَه .

تنافسَ غُلامان لتاجِرين ، على شراءِ كبْش لا تزيدُ قيمتُه عنْ دينار . ولم يكنْ بالسّوق يومئذٍ كبشٌ سِواه ، وانتهىَ الثمنُ لأحدِ الغلامَين على أربعمائةِ دينار ، فدفعَها لتاجرِ الأغنام ، وعادَ بالكبْش إلى سيدِه . وفرِحَ به سيّدُه ، وبما فعلَه ، فأعتقَه ، وأعطاهُ مكافأةً ألفَ دينار . وعادَ الغلامُ الآخر خائبًا إلى سيّده ، فضربَه ، وأخذَ مالَه ، وطردَه بعيداً عنه .

ثوب أبى المواهب

أبحرَ ابنُ بطّوطة من « عدَن » عابِراً « بابَ المندب » إلى « زيلَع » فى (جيبُوتى الآن) على الساحِل الشرقىِّ لأفريقيةِ ، ولم يُطقِ البقاءَ بها ، ففرَّ منها بسرعة لقذَراتها بسببِ فضلاتِ السمك ودماءِ الجِمال التى تُتْرَكُ فى الأزِقّة حتى تتعفَّنَ . وركِبَ البحرَ إلى « مقدِيشيو » (بالصومَال الآن) ، فاستقبلَه الناسُ مرحِّبين ، وصحبَه القاضِى لزيارةِ السلطان ، فأنزلَه ضيفًا بدارِ الطّلبة ، وشدَّ ابنُ بطّوطة على وسطِهِ فوطةً مثلَ أهلِ المدينة ، وارتدَى صِداراً مبطّنا ، ووضعَ على رأسِه عمامة مصرية . ثم واصَل رحلتَه إلى مُمْبَسّة (مُنْبَسّى الآن) بأرضِ كِينيا ، وصلّى فى مساجدها الخشبِية ، ثم واصلَ رحلتَه إلى « زِنْجبار » وإلى « كِلوه » (كلاهُما بتانْزَانيا الآن) وكانَ يحكُمُ كِلْوه السلطانُ أبوُ المواهب ، وكانَ سلطانًا كرِيما ، لا يكُفُّ أبداً عن حربِ الزّنوج ، ونشرِ الإسلامِ بينَهم .

خيـــولُ ظفـــار

أبحرَ ابنُ بطوطة من « كِلْوه » إلى ساحِلِ « عُمان » على شاطىءِ المُحيط الهندى ، ودامتْ رحلتُه فى البحرِ شهراً ، ونزلَ فى « ظُفار » بأرضٍ صحراوية ، تسعى بها خيولٌ برّية ، يطاردُها الناسُ ، ويمسكُون بها ، ويصدِّرونها إلى الهِند . كانت ظفارُ آنذاك بلا موارد . وكان سوقُها قَذِرا ، كثيرَ الذباب . وأكثرُ أهلِها صيادُون ، يأكلُون السرْدِين طازَجا ، ويطعِمُونه دوابَّهم مجفَّفا ، وكانوا كرماءَ كرمَ أهلِ المغرب . وعجِبَ ابنُ بطّوطة حينَ رأى الجند ، جالسينَ عند قبرِ والدِ سلطانِ ظفار ، مُضرِبين عن العملِ ، لأن رواتِب شهرِهم تأخرَتْ عنهم . وزادَ عجبهُ حين رأى نقُودَ التعاملَ من النحاسِ والقصدير ، وليسَتْ من الذهبِ والفضة ، ولأن الناسَ يسيرُون عراةَ الرؤُوس . وشعرَ بالتعاسَةِ حين وجدَ أكثرَ أهلِ ظُفَار مصابًا بداءِ الفيل (انتفاخِ القدميْن) ، ويعانُون كثيراً من احتباسِ البَوْل .

ووصلَ إلى « ظُفار » وهو بها مركبٌ هِندى ، محمَّلٌ بالأُرزِ والحريرِ والقُطنِ والكِتّان ، فأسرَع رجالُ السلطانِ فى القواربِ إلى السفينةِ ، يحملُون كسوةً كامِلة لربَّانِ المرْكِب ، ولوكيلِهِ ، ولكاتِبه ، ثم عادُوا بهم يرتدُون ثيابَ السلطانِ إلى الشاطىءِ ، فركبُوا ثلاثةَ خيولٍ إلى دارِ السلطان . وأضافَ السلطانُ كلَّ من فِى المركبِ ثلاثةَ أيام ، واشترَى التجارُ من أهلِه ما معَهم من بضائِعَ ، وباعُوا إليهم خُيُول ظُفار العربِية .

رأسُ الوزير

وذهبَ ابنُ بطوطة وهو بظُفار إلى الأحقافِ « ديارِ هود » ، وصلّى فى مسجدٍ على البحرِ بجانبِ قريةٍ للصيّادين ، ورأى بزاويةِ القريةِ قبْرا ، قِيلَ له إنه قبرُ النبىِّ هُود . وكانتْ حولَ القريةِ بساتينُ مَوْزٍ كبيرِ الجِرْم ، تزنُ المَوْزةُ منها اثنتَىْ عشرةَ أُوقِيّة . ورأى شُجَيْرَاتِ التَّانْبُول (القات) المتسلّقة ، وأشجارَ النّارجِيل (جوز الهند) التى تشبِهُ النّخِيل . وكان يراهُ لأولِ مرة ، وكانت ثمرتُه (جَوْزَتُه) مثلَ رأسِ ابنِ آدم ، وعليهِ لِيفٌ يُشبِه الشعر ، تُصنع منه حِبالُ المراكِب . وقيل له إن أكْلَ ما فِى الجوزة ، يُقوِّى البدن ، ويَزيدُ فى حُمرةِ الوجْهِ ، وأطعموهُ من مستخرجاتِهم منه : عَسَلاً ، وحَلِيبا ، وزَيْتًا . وحدثَه أهلُ القريةِ أنهم جلبُوه من الهِند ، وزرعُوه بأرضِهم ، وحكَوْا له خُرافةً عن شجرةِ جوزةِ الهِند .

« زعمُوا أن حَكِيما من حكماءِ الهند ، فى غابرِ الزمان ، كان متصِلاً بملِكٍ من المُلوك ، ومعظّما لديْه ، وكان للملِك وزير ، بينَه وبينَ هذا الحكِيم مُعاداة ، فقالَ الحكِيم للملِك :

ـ إنّ رأسَ هذا الوزير إذا قُطِعَ ودُفِن ، تخرُجُ منه نَخْلة ، تثمِرُ ثمراً عظِيما ، يعودُ نفْعُه على أهلِ الهِند وسِواهم من أهلِ الدّنيا .

فقال له الملك :

ـ فإنْ لم تظهرْ من رأسِ الوزيرِ هذهِ الشجرة . فماذَا أفعلُ بك ؟

فقال الحكيم :

ـ إن لم تظهَرْ هذِه الشجرة ، فاصنعْ برأسى ، مثلَما صنعتَ برأسِ الوزِير .

فأمرَ الملِك الهندى برأس الوزير فقُطِع ، وأخذَ الحكيمُ رأسَ الوزِير ، وغَرَس نواةَ تمْرٍ فى دماغِه ، وسوَّى عليها التّراب ، وَروَاها ، وَرَعَاها ، فنبتَتْ شجرةُ النارجِيل ، وكبِرَت ، وأثمرَت جَوْزَ الهِند » .

تـاكل لا

من ظُفار ، أبحرَ ابنُ بطوطة فى طريقهِ إلى عُمَان ، فى مركبٍ صغير . وعلى طولِ الطريقِ كانَ ينزِلُ بمراسِىَ على الساحِل ، ويرىَ ما لا عهدَ له بِه من قبل . رأى شجرَ الكَنْدَر فى « حاسِك » ، وكان لهُ ورقٌ رقِيق ، يشرطُه الناسُ ، فيقطرُ ماءٌ بلوْنِ اللّبن ، ما يلبثُ أن يجفَّ ، ويصيرَ لبَانا ، ورأى بيوتَ الناسِ بحاسِك مُقامةً من عظامِ السّمك الضخْمة ، وسقوفُها من جلودِ الجمال . ورأى جبلَ « لَمَعَان » قائمًا فى وسطِ البحر ، وبيوتُ الناسِ فيه من حِجَارةِ الجبل ، لكنَّ سقوفَها من عِظَامِ السّمك . ورأى جزيرةَ الطير ، تعُجُّ سماؤُها بطيورٍ مثلَ طُيورِ الشَّقَاشق ، وأهلُ الجزيرةِ يطهُون الطيُور ، وبيضُ هذه الطيُور ، ويأكلُونَها .

ورأى ابنُ بطّوطة وهُوَ بالمركب ، مركبًا أخْرى كانت تسبِقُه ، وكان بها بعضُ التُّجّار ، وغرِقت فى العاصِفة هِىَ ومن بِها ، ورأى رجُلا يصارِعُ الموجَ من أهلِها ، فساعدَه أهْلُ المركبِ على الصعودِ إلى مركِبهم .

ومرَّ المركبُ بجزيرةِ « مصِيرة » تلوحُ على البعدِ . وبعدَ يومٍ وليلة ، وصلَ المركِبُ بابنِ بطّوطة إلى قريةِ « صُور » الكبيرةِ ، فنزلَ بها . وكان قد كرِه صُحبةَ أهلِ المركِب ، وتشاءَم به . ورأى على البُعد

مدينةَ « قَلْهَات » قائمةً فى سفحِ جبل . وكان الوقتُ ظُهْراً ، فعزَم على المشْىِ نحوهَا ، مع صاحبِه الهندى ، « مولاَنا خِضرْ » ، وصحِبَ معهُ دلِيلا ، حملَ ثيابًا له ، وتركَ بقيةَ أشيائِه بالمركب مع أصحابٍ له ، إلى أن يلحقُوا بهِ فى « قَلْهات » .

فِى الطريق ، كان خِليجٌ بحرىّ ، يختصرُ الطريقَ إلى قَلْهات ، وأرادَ الدّلِيلُ عبورَ الخلِيج بثيابِ ابنِ بطوطة ، فشكَّ فيه ، ورأى الناسَ لا يجتازُونه إلا سباحَةً ، فأدرَكَ أنّ الدليلَ يُرِيدُ الهربَ بالثِّياب ، فإذَا لحِقَ هو ومولاَنا خضر به ، غرِقا فى الخليج ، فَهَدَّدَه ابنُ بطّوطة برُمحِه ، وواصلَ طريقَه فى الصّحراء ، وكان يظنُّ أنّ المسافَة ، على بُعدِها ، قريبة ، لكنَّ الليلَ أدرَكه ، فنامَ صاحِبَاه فى الصَّحراء ، وبقِىَ هو ساهرًا يحرسُهما ، ومعَهُ الثِّياب . ثم واصَلَ المسيرَ مع الصّباح ، يسندُ مولاَنا خضِر الذى حلَّ به المرَض ، والعَطَش . وعندما وَصَل إلى أبوابِ المدينة ، كانتْ قدماهُ قد تورَّمتا ، وضاقَ عليْهما نعلاَه ، ونزلَ هو وصاحبُه ضيفًا على أميرِ قَلْهات ، لا قدرةَ له على الوقُوف ، يأكل سمكاً مشويًّا على ورقِ الشَّجر ، وأرزاً مجلُوبا من الهِند . وعندما قدَرَ على المشىِ ، زارَ قريةَ « طِيبِى » القريبةِ ، وسعِدَ بما فِيها من بساتينَ وأنهارٍ وأشجار . وتعلَّم من أهلِ البلد ، أن يُلْحِقَ بكلّ كلمةُ يقولُها كلمةَ « لا » ، فكانَ يقولُ لصاحبه : « تاكل لا » ، « تمْشِى لا » ، « تَنَام لا » .

أصـــداف اللـؤلـؤ

من جديد ، عادَ ابنُ بطوطةَ وصاحبُه يسيرانِ فى الصّحراء ، صوبَ بلادِ عُمَان . ووصلَ إلى مدينة « نزْوه » . كانتِ المدينةُ فى سفحِ الجبلِ الأخضر ، تحيطُ بها البساتِين والأنهار . ووجدَ أهلَها لا يأكلون إلا فى صُحُون المساجد ، يأتِى كلٌّ بما عندَه ، ويجلسُون للأكلِ معا ، ويجلِسُ معهم كلُّ ضيْف ، أوعابرِ سبيل ، وكان حديثُهم على الطعامِ عن الحرب ، فالحرْبُ مستمرة فيما بينَهم دائما . وعجِب إذ رأَى سلطانَ عمان « أبا محمد بن نبهان » جالِسًا خارجَ بابِ دارِه ، بلا حاجبٍ ولا وزِير ، وأكلَ معه لحْمَ الحِمار الإنسىّ . وأعانَه السلطانُ هو وصاحبُه على السفرِ إلى « صُحَار » على شاطىءِ الخليجِ العربى ، كىْ يصِلَ عن طرِيقِ ميناءِ « هُرمز » إلى الحجاز . فالطريقُ الساحلىُّ بين عُمان والقطِيف (بالسعودية) مطمورٌ بالرمَال . وعبرَ البحرَ عند المضيق إلى « هُرمز » ، وكانتْ تابعةً لسلطنةِ « عُمان » ، وعبرَ أراضِى سبِخَة ، وأراضِىَ صحراوية حتى وصلَ إلى مدينةِ « سِيراف » ، على الشاطىءِ ، فأبحرَ منها إلى البحْرين . ورأى قواربَ الغوَّاصين الذينَ يغُوصون إلى قاعِ المياه بحثًا عن أصدافِ اللّؤلؤ .

وسارَ من القطِيف ، فى ركبِ الحاجِّ النجدىِّ إلى مكة ، عبْرَ أرضِ اليَمامة الخِصبة ، فِى صُحبةِ أميرِ اليَمامة « طُفَيْلُ بنُ غانِم » ، وكان قد بلغَ من العمرِ تسعًا وعشرِين سنةً .

إثْرَ الحج ، عقَدَ ابنُ بطّوطةَ النيّةَ على السفرِ إلى الهِند ، عن طريقِ اليمن ، وطالَ انتظارُه فى جُدّة أربعِين يومًا ، ووجدَ سفينةً صغِيرة ،

فتشاءَم منها ، فرحلتْ بدونِه ، ولمْ تلبثْ أن غرِقت فى البحرِ ، ونجَا عددٌ من ركابِها فى قوارِبِ النَّجاة ، وعادُوا إلى جُدَّة . ووجَد مركِبا أخرى صغيرةَ الحجم ، لكنَّها متينةَ البناء ، فركِبها ، لكنَّ الرياحَ دفعتْها مرةً أخرى إلى رأسِ دوائر بالسودان ، فصحِبه البجاويّون إلى ميناءِ عيذاب بأرضِ مصر . وعادَ من جديد يجتاز صعيد مصر ، وسيناء ، والشام ، فقد غيّرَ غايتَه من السفر ، لكى يزورَ بلادَ الروم فى آسيا الصغرى (تركيا الآن) ، وكان يصحبُه فى رحلتِه هذه صديقُه القاضِى « عبد الله التوزَرِى التّونسى » وظلاّ متلازميْن عدداً من السنين ، لم يفترقَا إلا بعدَ خروجِه من بلادِ الهِند .

تنظيمـات الأَخيَّـة

ركِب ابنُ بطوطةَ البحرَ من اللاذِقية فى سفينةٍ كبيرة لتجارِ أوربِّيين من « جِنْوَا » (فى الشمالِ الغربىِّ لإيطاليا الآن) حتى بلغَ مع صاحبه ميناءَ « العَلايا » على ساحِلِ أضاليا ، وكان ربَّان السفينةِ قد أعجِب بهما ، فلم يأخذْ منهما أجراً . وكان الأترَاكُ السلاجِقة قد فتحُوا هذهِ البلاد ، وأنشأوا فيها الإمارات . ونشرَ الأتراك دينَهم على الشاطىءِ الشرقىِّ لأوربا ، وحولَ البحرين : الأسْود ، وآزُوف .

وتأثرَ ابنُ بطوطَةَ بأتراكِ « العَلايا » لرِقَّتهم ورحمتِهم ، وحبِّهم مثلَه للنّظَافَة ، وحُسْنِ تقديرِهم للقضاةِ والفُقَهاء . ونزلَ مع صاحبِه ضيفاً على « جلالِ الدين » قاضِى « العَلايا » ، وقدَّمه القاضِى إلى ملكِ العَلايا فى قصرِه على مسيرةِ عشرةِ أميال . وشاهَدَ السفنَ الكبيرةَ تُبنَى على الساحِلِ

من أخشابِ أضاليا ، وتحمِلُ الخشبَ إلى موانِى مصر ، وأكلَ الليْمون الأضالِيَّ الكبير ، والمِشمش المسمّى عندهم بقمرِ الدين . وراقتْ له العَلايا . كانت مقسمةً إلى ثلاثةِ أحْياء ، فى كلّ حيٍّ يسكنُ أهلُ مِلّة . وكان المسلمُون فى أكبرِ حيٍّ بالعَلايا . وكان لكلّ حيٍّ سُور ، تُسدُّ أبوابُه على أهلِه ليْلا ، وعند صلاةِ الجمعة . وكانَ أروعَ ما شهِدَه فى العَلايا وهزَّه هو : « تنظيماتُ الأُخَيّة » .

كانتْ هذهِ التنظيماتُ شبيهةً بنظامِ الفُتوة فى عصرِ الفرسان . وقد أقامَ هذَا التنظيمَ فى مدنِ الأناضول أهلُ الحِرَفِ والصِّناعات . فمن بين كلِّ أهلِ حرفةٍ يتجرَّد جماعةٌ للتصوُّف من الشبانِ الأعزَاب ، ويجمعُون من أهلِ حِرفتِهم مالاً ، يبنُون به زاويةً تُفرشُ بالبُسط ، وتجهّزُ بثريّات الزّجاجِ العِراقى (المِشكاوات) ، وبالسُّرجِ النحاسيةِ المثقَّبَة ، الموضوعةِ على البُسُط . وغايتُهم هى الاحتفاءُ بالغُرباء من أبناءِ السبيل ، وقضاءُ حوائجِ أهلِ حرفتِهم ، والتصدِّى لمن يظلمُونهم ، والشفاعَةُ لهم عندَ الحكام ، وكانُوا يجتمعُون إثرَ صلاةِ العصر ، ويأكلُون معاً ، ويغنُّون معاً ، ويرقصُون رَقْصَ الدراويشِ معاً ، ويشركُون معهم فى كلّ ذلك الغرباءَ من أبناءِ السبيل . وإلى بيتٍ من بيوتِ الأُخَيَّة هذهِ دعاه شيخُ الخَرَّازين ، وكانَ أصحابُه يبلغُون المائتين ، وما كسبُوه بالنهارِ ينفقُونه باللّيل .

ذهبَ ابنُ بطوطة مع صاحبِه التوْزَرى إلى بيتِ الأُخيَّة إثرَ صلاةِ المغربِ ، ومشَى على البُسُط الإيرانيةِ الوثيرةِ ، تحت ثُريّات الزُّجاج . ولبِسَ مثلهم قِباءً ، وانتعلَ خُفًّا ، ووضعَ فى وسطِه حزامًا يتدلَّى منه سكّينُ كَسَيْف قصير ، ووضعَ على رأسِه قلنسوةً بيضاءَ من الصُّوف ،



بأعلاها ذيلٌ في طولِ ذراع . وجلَس بينَ المتكئات ، يأكلُ اللحُوم ، والحلوى ، والفواكه . وأنصتَ إلى غِنائهم ، وشاركَهم في رقْصةٍ كرقصةِ الدراويش ، في منتصفِ دائرةٍ من الفِتيان ، دائراً حول نفسِه في سرعةٍ ، ناشراً ثوَبه حولَه

حجـرٌ مـن السّمــاء

أخذَ ابنُ بطّوطة يتجوَّل في مدائنِ تركيا ، شـرقاً إلى أرْض روم (أرزنجان الآن) ، وغربًا إلى « قصْطَموني » ، و « صِينوب » على شاطىءِ البحرِ الأسود . واجتازَ في رحلتِه ، جبالَ « طورُوس » ، وجبالَ « بنطس » ، وعبر أنهاراً ومستنقعاتٍ ، وصحارىَ ، وسُهُوباً . وفي كلّ مكانٍ كان ينزلُ ضيفًا على القُضاةِ والملُوك . ويقضي لياليَه في زَوَايا الأَخَيّة ، وقد لفتَتْ نظرَه حريةُ النّساءِ في العملِ والحركة ، ومهارتُهُنّ في الصِّناعاتِ الحِرَفِيّة ، والنسويَّة ، وركوبِ الخيل ، والفروسيّة . وأراهُ سلطانُ « بِرْكي » حجراً أسودَ أصمَّ شديدَ الصَّلابة ، لهُ بريق ، يربُو وزنُه على قِنطار (مائة كيلوجرام) ، وقال :

ـ هل رأيتَ قطّ حجراً نزلَ من السّماء ؟

فقال ابنُ بطّوطة بدهْشة :

ـ ما رأيتُ ذلك ، ولا سمِعْت به .

فقال له سلطانُ بِرْكي :

ـ فهذَا حجَرٌ من السماء ، نزلَ بخارجِ بِرْكي .

وجاءَ أربعةُ قَطَّاعِين للأحجارِ ، وأخذُوا يضرِبُون فيهِ بمطارقَ الحدِيد ، فلم يؤثِّروا فيه أيَّ تأثِير .

ورأىَ « صارُوخان » سلطانَ « مَغْنِيسْيَا » ، فى ليلةِ عيد ، واقفًا تحتَ قُبةٍ مع زوجتِه ، ينظرانِ إلى جثمانِ ابنِهما المصبَّر (المحنَّط) ، والمعلَّق بسقفِ القبة ، مَحبةً له ، وإيثارًا له عن مُواراتِه الثرى ، ولكىْ يَرَيَاه كلّ يوم .

ورأىَ فى « قَصْطمونى » الشيخَ « دادَا أمير على » بزاويةٍ بالقربِ من سوقِ الخَيْل ، وكان شيخًا صالِحا معمَّراً . دخلَ عليه فوجدَهُ ملقًى على ظهرِه ، فأجلسَه خادمُه ، ورفَعَا له حاجبىْ عينيْه ففتحَهما ، وقالَ له بالعربِيّة الفُصحَى :

ـ قدِمت خيرَ قُدُوم .

وسألَه ابنُ بطّوطة عن عمِره ، فقال له :

ـ كنتُ من أصحابِ الخليفةِ المستنصرِ بالله ، وتوفّى وأنا ابنُ ثلاثين سنة ، وعمرِى الآن مائةٌ وثلاثٌ وستُّون سنة .

وفقدَ ابن بطوطة فى الطريقِ أفْراسًا ، بعضُها نفق ، وبعضُها غَرِق . وهرَب منه دليلُ فارس ، فصارَ يتنقّلُ بدونِ مُترجم ، ويطلبُ من البائِع سَمْنًا فيعطِيه تِبْنًا ، فلم يكنْ قدْ أحسَن اللغةَ التّركية بعْد . ويجدُ امرأةً تكونُ له دليلاً ومرشِدا فى الطريق ، وأوشكَتْ أنْ تغرَق منه ، وهى تعبُرُ النهْر ، وكانَ فى طريقهِ إلى « صِينُوب » .

عربات تجرى على بكر

ظلّ ابنُ بطّوطة أربعينَ يومًا ينتظرُ سفينةً فى ميناءِ صِينوب ، تعبرُ به البحرَ الأسْود ، يسمعُ المخاوفَ عن عبورِ هذا البحْر ، حتى وجدَ سفينةً ظلّ ينتظرُ بها أحَدَ عشرَ يوما ، إلى أن هبّت ريحٌ مساعِدة فأبحرتْ به السفِينة لكنّها واجهت فى البحرِ الأسْود عاصِفةً بحريّةً بعدَ ثلاثةِ أيام ، فعادَ الربّان بالسفينةِ إلى المِيناء . وتكرّرتِ المحاولَةُ الفاشلةُ لعبورِ البَحر مرةً ثانية . لكنَّها فى المرةِ الثالثة نجحَتْ فى عبورِ هذا البحْر ، والوصولِ إلى قرب « قارِش » (كرش الآن) ، على المضِيق بين البحرِ الأسود وبحرِ آزوف . وتخوّف ركابُ السفينةِ من النزُول . لكن ابنَ بطّوطة وصاحبَه التّوْزَرى » غامراً بالنزُول فى موضِعٍ من البرّ ، قريبٍ من المدينة ، على ساحِلٍ غريب ، فى منطقةِ سُهُوب السّفانا المليئةِ بالحشائشِ الطوِيلة ، شرقِىّ شبهِ جزيرةِ القَرْم .

كانتْ منطقةُ القرم تابعةً لدولةِ خاناتِ المغول القَفْجَاق ، من قبيلةِ القطِيع الذهبِىّ ، وكانت دولةً تتريَّة مُسلمة ، بسطتْ سيادتَها بين المجرىَ الأدْنى لنهرِ الدُّون غربًا ، والمجرىَ الأدْنى لنهرِ الفُولجا شرقا ، شاملةً نواحى « كييف » والقُوقاز ، وممتدةً بين بحارٍ : آرالَ ، وقزوِين ، وآزُوف ، والبحرِ الأسود ، وبحرِ الأدْرياتِيك .

ودخَل ابنُ بطوطة مدينة « قارِش » ، ودَهِش لكثرةِ العرباتِ المغطاةِ التى تجرِى على بكرٍ وتجرّها الخُيُول ، واستأجرَ وصاحِبَه عربتَيْن ، سارتَا بِهِما إلى مدينةِ « الكَفَّا » ودهِش حين دخولهِ المدينةَ لسماعِ أصواتِ النواقِيس من كلّ ناحية ، فصعِدَ إلى صوْمعَةِ النواقِيس ، ورفعَ صوتَه

بالآذان ، فأسرَعَ إليه قاضِى المسلمينَ مع رجالِه مدجَّجِين بالسِّلاح ، وأنقذَه هو ومنْ معَه من هلاكٍ محقَّق . وكان أكثرُ السكّان من الأتراكِ المسيحيِّين ، وكانُوا لا يأكلُون الخبزَ ، ولا الطعامَ الغلِيظ ، فطعامُهم لحمٌ مطبوخٌ فى لبَنٍ رائِب . ورأى ابنُ بطوطةَ بمرسىَ الكَفّا ما يقرُبُ من مائتَىْ سفينةٍ حربيةٍ وتجارية ، بينَها الصغيرُ والكبير .

عـلى ضفـاف آزوف

وصلَ ابنُ بطوطة إلى مدينةِ آزاَق (آزوف الآن) ، فى عرباتٍ تجرُّها الخيْل . وكان يقودُ عربتَه سائقٍ ، يركبُ أحدَ جيادِ العَربة فوقَ سرْج ، وفى يدهِ سوْط كبير ، وعصًا يُوَجِّه به فرسَه القائدِ إلى الطريق . وكانتِ العربةُ ذاتِ أربعَ عجَلات ، لها قُبَّةٌ من قُضْبَانٍ خشبِيَّة ، مربوطٌ بعضُها إلى بعْض ، بسيورِ الجِلد ، ومكسوَّةٌ باللّبد . وكان بها طِيقَانٌ مشبَّكة ، يرَى من داخلِها الناسَ ولا يرَوْنه . ويملكُ أن يتقَلب فِيها ، وينامَ ، ويأكلَ ، ويقرأ ويكتبَ ، أثناءَ السير . ومن حولِه كان يرَى عرباتٍ أخرى ، تحملُ الأثقالَ والطّعام ، مغلقةً بأقفالٍ تجرُّها الأبْقار . وكانتْ معَه فى عربتِه جارِية ، وتتبعُه عربةٌ رفيقهِ التوْزَرى ، وعربَةٌ أخرَى كبيرةٌ تجرُّها ثلاثةُ جِمال ، بها بقيةُ الأصْحاب ، وحينَ كانوا ينزلُون للرّاحة ، كانُوا يطلقُون الدوابَّ ترعَى الأعشَاب من حولِهم بلا رعاةٍ ولا حُرّاس . فمن يسرِقُ دابَّةَ فى هذِه البِلاد ، كانَ يُكلّف بردِّها إلى صاحِبها ، ومعَها تسعُ دوابَّ ، فإن لم يقدِرْ على ذلِك أعطَى أولادَه خدمًا لصاحِبِ الدابّة المسروقةِ ، فإن لم يكنْ له أولاد ، ذُبِحَ كما تُذْبَحُ الشّاة .

واستمعَ فى خيمةٍ كبيرةٍ كالقُبة من الحريرِ الملوّن ، معَ الأمير « تلكِتيمور » ، إلى ترتيلٍ عجيبٍ للقرآن ، وإلى غناءٍ شجِيٍّ حزِين ، بالعربيةِ ، وبالفارسيةِ ، وبالتركية ، وأدهَشه احترامُ أهلِ البلادِ للنّساء ، وتعظيمُهم لهُنّ ، وأدهشَه كثرةُ الخيل ، ورِخَصُ أسعارها ، وكان التجارُ يصحبُونها عبْرَ الوُديان والأنهارِ إلى شمالِ الهند لبيعِها هناك . لكنَّها كانت خيولاً قصيرةَ الخَطْو ، لا تصلُح إلا للركوبِ أو الجرِّ أو حملِ المتاع ، ولم تكنْ خيول حربٍ واسعةَ الخطا ، سريعةَ العدو ، مثلَ خيولِ العرّب فى ظُفار .

علــى ضِفــاف الفــولجــا

وبلَغ « ابنُ بطوطة » مدينةَ « الماجِر » (بورجُوماد زهْرى الآن) ، على ضِفافِ نهر « كوما » بالقرب من رأس دلتا نهرِ « إتل » (الفولجا الآن) ، فوجَد بها زاويةً للرِّفاعية يعيشُ بها فقراءُ العربِ والفرسِ والرّوم والتّرك . وتوجهَ إلى معسكر السلطان ، فِى مدينةِ الجِبال الخَمْسة ، مدينةِ « الحاجّ تُورْخان » (استراخَان الآن) ، فى صحبةِ أمير ، ولقِىَ بها السّلطان « محمد أوزبك خان » ، سلطانَ المغولِ القفجاق ، وأكرمتْه الخواتِين زوجاتُ السلطانِ الأربعة ، وابنتُه وابناه . وأبدَى رغبتَه فى زيارةِ مدينة بلغار ، ليشهَد بها مدَى قِصَرِ الليل ، وطولِ النهار . كانت المدينةُ على ضفافِ نهرِ الفولجا ، عندَ التقائِه بفرعِهِ نهرِ كاما . ووصلَ إليها فى شهرِ رمضان ، فلما صلّى المغرب ، وأفطرَ بالمسجِد ، أُذّن لصلاةِ العشاء ، وصلّى بعدَها مع الناسِ التراويح ، والشَّفع ، والوِتْر . ودهِش

دهشةً بالغة ، فقد طلعَ الفجر ، ونُودِى له بالصلاة ، وهولم يبارحْ مجلِسه . وهمَّ بالسفرِ إلى بلادِ الظلمة (شمالى الاتحاد السوفييتى الآن) ، لكنهُ هابَ مساحاتِ الجليد ، فعادَ مسرعًا إلى « استراخان » ، دونَ أن يزورَ بلاد فراءِ السَّمُّور ، والقاقم ، والسِّنْجَاب .

عـلى ضفـاف البوسفـور

كانت « بايْلون » إحدى زوجاتِ السلطان رُومية ، ورغِبَتْ فى زيارةِ أبيها الملك بالقسطنطينية ، (استانبول الآن) فانتهزَ ابنُ بطّوطة الفُرصة ، وصحِبَها ليرَى مدينَةَ قومِها على الشاطىءِ الغربىّ لمضيقِ البوسفور . وتدفقتْ عليهِ الأموالُ والهَدايا من السّلطان وابنةِ السلطان ، وزوجاتِ السّلطان .

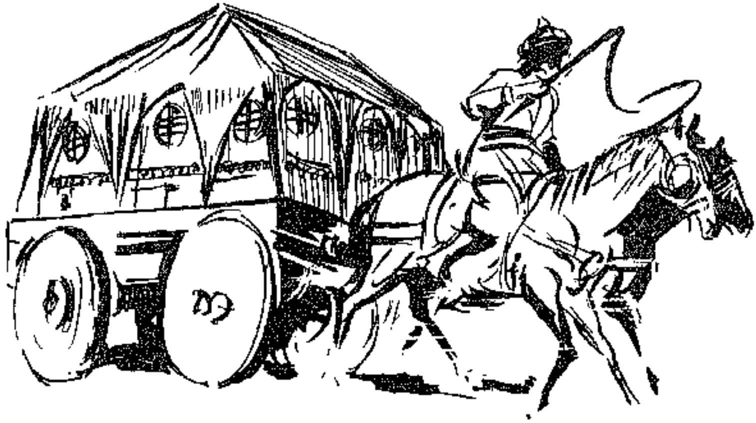
ودخلَ القسطنطينيةَ فى موكبٍ حافل ، واستقبلَه ملكُ القسطنطينية ، وراحَ يسألُه باهتمامٍ عن الصخرةِ المقدسة ، والقُدس ، والخليل ، ومترجمٌ يهودِىٌّ يترجمُ لهما ما يقولاَنِه ، وخلَع الملِكُ عليه ثوبًا ملِكيا ، وأمرَ بفرسٍ مُلجَّم ، طافَ به فى المدينةِ ، فى موكبٍ تدقُّ فيه الطبُول ، ليراهُ الناسُ ولا يؤذونه ، وليرَى معالمَ المدينة ، فى سفحِ الجبل ، وكنيسةَ « أيا صوفيا » ذات الأبواب الثلاثةَ عشر ، بهرتْه الكنيسة ، ولقِى بحَرَمِها المكسوِّ بالرُّخام والدَ الملِك ، وكان قد تَرَكَ المُلكَ لابنهِ ، وصارَ راهِباً . ورأى الرّاهِبات والرُّهْبَان . وطافَ بالأديرةِ

فى المدِينة ، ونعِمَ بالحفلاتِ التى أقيمتْ للأمِيرة ، زوجةِ السلطان وآثرتِ الأميرةُ البقاءَ مع أهلِها ، فعادَ هو مع رجالِ السلطان ، إلى السلطان ، وكان آنذاك ، بمدينة « السُّرا » (قرب مدينة جورييف) عابراً جنوبى بلغاريا ، ورومانيا ، وملدافيا ، وأوكرانيا .

الطـــريق إلــى دلهــى

دخلَ ابنُ بطوطة ، عبْرَ رِحْلةٍ شاقة ، استبدلَ فيها الخيلَ بالجِمال ، مدينةَ خُوَارَزْم (خيفا الآن بجمهورية تركمانستان) وكانتْ تموجُ بزحامِ الناسِ موْجَ البحر . كانت المدينةُ ما تَزَال أعظمَ مُدنِ الأتراك ، يضِلُّ السائرُ فيها طريقَه بالأسْواق . وكانتْ خُوارزم تابعةً لسلطنةِ المغولِ فى فارسَ والعراق . وكانُوا يطبِّقون فى السياسةِ قوانينَ المغُول ، وفى الاجتماعِ شريعةَ الإسلام ، وأخذَ يزورُ مدائِنَ بخُارى ، وترمذ ، وسَمَرْقَند ، وبَلْخ ، وهَرَاه ، وطُوس ، والجام ، وغَزْنة (وهى الآن مدنٌ متناثرةٌ بين أفغانستان ، وجمهوريتىْ أوزبكيستان ، وتداجستان) . ورأى الناس فى مدينة « نَسْف » يغسِلون رؤُوسهم باللّبن ، ورأى بلخ ، وترمذ ، خاويتيْن على عروُشهما ، منذُ تدميرِ التّتر لهما ، ويدخلُ إلى الهندِ من الشمالِ عبر « ممرِّ خيبر » فى جبالِ سُليمان ، على ظهورِ الجمال ، وكان معَه صاحبُه « التوزَرى » ما يزالُ ، وجيبُه مثقلٌ بالمال ، ومتاعُه تنوءُ بحملِه الجِمال .

جازَ ابنُ بطّوطة نهرَ السِّند إلى إقليم « البِنجْاب » ، فى شهرِ سبتمبر ، فى خريفٍ حارّ ، عبَرَ النهْرَ فى سفينةٍ سُلطانية ، كأنهُ من الأمراءِ ، تحيطُ به مراكبُ النّدماء ، والمطرِبون ، والطبول ، والأبواق ،



حتى نزلَ فى مدينة « لهارى » (لارى بُوند الآن) وولدتْ له جاريتُه ابنةً ، ماتَتْ فى الطريقِ بعْدَ شهرين . وطيَّر البريدُ خَبَرَ وصولِ ابنِ بطوطة وصاحبِه إلى السلطان المغولىّ « محمد تغْلق » سلطانِ الهند ، على بريدِ الخيل ، فهكذَا يفعلُ عيونُه فى أرجاءِ الهند ، كلما دخلَها غريبٌ عن البِلاد ، وكانت رسائلُ البريدِ تُسلَّم من رسولٍ إلى رسولٍ ، كلَّ أربعةِ أميال ، حامِلين جلاجلَ بها أجراسٌ من النُّحَاس .

وشقَّ ابنُ بطوطة طريقَه فى الصحارىَ والغَابات ، إلى مدينة « دلهى » عاصمة الهند ، وكانتْ عيناهُ مفتوحتيْن ، ترياِنِ كلَّ شىء ، وتتأملان كل ما يراه فى المدائنِ ، والقُرى ، والمعابدِ ، والحصونِ ، وطوائفِ الهنود ، وإحراقِ الأراملِ لأنفسِهن باختيارِهن ، مع أزواجِهن حين يموتُون ، وفاكهةِ المانجو ، وأشجارِ النارجيل ، وشجيراتِ التانبول ، والفلفل . وحين دخَل دلهى بهرَه جامعُها الكبير ، قائمًا يملأُ الفضَاء ، فى موضعِ معبدٍ بُوذِىّ . وكانت له مِئذنةٌ هائِلة ، لم يرَ لها نظيراً ، هى مئذنة « قُطْبُ مَنَار » .

مطـامـح . . وأطمـاع

أحسَنَ السُّلطان استقبالَ ابن بطوطةَ كفقيه ، وأغدَق عليهِ الأموال هو وصاحبُه التوْزَرى وخدمُه وجوارِيه ، وعيَّنه قاضِيًا لدارِ المُلك ، ومُشْرِفًا على ثلاثِين قريةً ، له العُشْرُ من خَرَاجِها ، فكانَ نصِيبُه فى كلّ عامٍ أربعةَ وعشرِينَ ألفَ دِينار .

وفجَّرتْ حياةُ الترفِ الطمعَ فى نفسِه إلى المزيدِ من المَال ، فراحَ يدَّعى للسُّلطانِ أن عليهِ ديُونًا للتّجّار ، ويلحُّ مراراً فى الحصُولِ عليها ، حتى أخَذَ منه أكثرَ من خمسِينَ ألفِ دينارٍ . وأوْغَرَ ذلِكَ صدورَ حاشيةِ السلطانِ ضِدَّه ، فكادُوا له عندَه بأنهُ يزُورُ أحدَ أعدائِه ، وكان هذا العدوُّ شيخًا زاهِدًا فى مغارةَ ، كثيرَ اللّوم للسُّلْطان .

وحدَّد السلطانُ إقامة ابنِ بطوطةَ فى بيتِه ، ولازَمه أربعةُ حراس ، فعِلمَ أنّ ذلِك بدايةُ العقاب ، وشعَرَ بخطورةِ بطرِه ، وعاقِبَةِ غرُوره ، طولَ ثمانِيَ سنوات أقامَها فى بلاطِ السّلطان . فتصدَّق مخلِصا بكلِّ أمواله ، واحتجب للعِبادة ، وصامَ على عادةِ الهنُود خمسةَ أيامَ ، لم يُفطِر فيهَا إلا علَى الماء . وبلغتْ أخبارُه السُّلطان ، فعفَا عنه ، بعد أن قَتَل عدوَّه الشيخَ الزاهِد ، وخلَّصه الله من محنتِه ، واعتكفَ فى زاويةِ الشيخ « بشِير » وله من العمرِ تسعٌ وثلاثُون سنة .

ويعثَ إليه السلطان يدعُوه إلى العوْدةِ لوِلايةِ القضاء ، والإشرافِ على خراجِ القرى من جديد ، فاعتذَر ابنُ بطوطةَ عن العودةِ ، وقد تاقتْ نفسُه إلى مغادرةِ الهِند ، ومُواصَلةِ الأسفار ، فلم يعُدْ يشعُرُ فى مُقامِه بالأمَان .

سفير لملك الصين

إلى سلطانِ الهِند ، جاءَ رسُل من ملِك الصّين ، محمّلين بالهدَايا للسّلطان ، وكانتْ هدايَا طائِلة ، وطلبَ وفدُ الملِك من السّلطان ، أن يأذَنَ للبُوذِيِّين فى « سمْهل » بإعادةِ بناءِ معبدٍ بُوذى ، كانَ المسلمون قد هدمُوه فى غابرِ السنين ، وكانَ الصينيُّون يحجّون إليه قبلَ دخولِ الإسلام إلى الهند . واعتذَر السلطانُ عن الموافقةِ على هَذَا الطلّب ، ورأى أن يُطيِّب خاطرَه بأن يبعَث إليه بهدِيّة ، يحملُها إليه وفدٌ من قِبله ، يذهَب مع رسلِ الملِك إليه ، ويرأسُه رجل جرِىء ، محبٌّ للأسْفار ، لا يخافُ البحار ، فأرسَل فى طلبِ ابنِ بَطّوطة ، وقالَ له :

ـ إنّنِى أعلمُ حبَّك للأسْفار ، وأريدُك أن تكوَن رسولاً عنِّى إلى ملِكِ الصِّين .

ووجدَ ابنُ بطّوطة الفرصةَ سانِحةً للهرَبِ من الهِنْد ، فلم يكنِ السُّلطانُ يسمَحُ للغرباءِ بالرحيلِ عن بلادِه إلا بإذنٍ منه ، فقالَ للسُّلطان :

ـ جهّزنِى بمَا أحتاجُ إليه فى السَّفر إلى الصين ، وعيِّنْ للسَّفرِ معِى الأعوْان .

أخطار الطريق

غادرَ ابن بطوطة « دلْهى » بالهدِية ، يصحبُه رسلُ ملِك الصين ، والوَفدُ الهِندى وكانَ معَه الأميرُ العالِمُ ظهيرُ الدين ، وحامِلُ الهَدِية كافور ، وخمسةَ عشرَ رجلاً آخرين ، ومائةُ خادم ، وألفُ فارس يحرسُون

الوفد ، يقودُهم الأمير « محمد الهَرَوى » ، إلى أنْ يَصِل الوفدُ إلى الميناءِ الذى سيركبُون منه البحرَ إلى الصِّين .

بعدَ مسيرةِ يومٍ واحدٍ ، عسكَر ابنُ بطوطَة فى مدينةِ « كُول » (عليكرَه الآن) . وجاءتِ الأخبارُ بغاراتِ قُطّاعِ الطرِيق على القُرى المحيطةِ بألفِ فارس ، وأربعةِ آلافٍ من المشاة . فاتخذَ أميرُ الفُرسان قرارَه بقتالِهم ، وكانُوا يحاصِرون قريةَ « جَلاَلى » ، وهاجَم الأميرُ وفرسانُه قطاعَ الطريق ، وأبادَهم ، لكن كافُورًا حامِلَ الهديةِ قُتِلَ فى المَعْرَكة . فبعَث ابنُ بطوطةَ إلى السلطانِ يطلبُ رجلاً سِواه ، يحمِلُ الهدِيّة .

وجلَس ابنُ بطّوطة ، فى قيلُولة الظهيرة ، فى نهارِ يومٍ من يُوليو ، فى بُستانٍ ظليلِ الأشجارِ مع رجالِ الوفد ، وسمِعَ صياحًا وعدْوَ خَيْل ، فسارَع بركُوبِ فرسِه مع من معه ، وتفرّقُوا فى جماعاتٍ يطاردُون المُغِيرين من قطاعِ الطرِيق فى أرضٍ كثيرةِ الأحجار ، شاهرًا سيفًا بيده ، وبجانِبِ سرجِه سيفٌ آخر ذِى مقبضٍ ذهَبى . ووجدَ ابنُ بطوطة نفسَه وحِيداً ، وقد انفردَ عن أصحابِه ، يطاردُ عشرةٌ من اللّصُوص ، ولم ينقِذْه من أيدِيهم سِوَى نزُوله بفرسِه فى خندَقٍ عظِيمٍ شديدِ الانْحِدار .

وغادَر ابنُ بطوطة الخندَق من الجِهَة الأُخْرى ، ومشَى بفرسِه ، فى طريقٍ تُحِيطُ به أعشابٌ كِثيفة ، وفوجِىءَ بأربعينَ رجلاً من قطاعِ الطريق ، يحيطُون بِه ، وقد شهَرُوا من حَوْلِه الأقواسَ بالسِّهام ، فأدرَك أنه مقتُول لا مَحَالة ، ورمَى بنفسِه عن فرسِه على الأرض ، حتّى يأسرُوه ولا يقتلُوه . فأخذُوه أسِيرا ، وسلبُوا كلّ ما معه ، ولم يبْق عليهِ من ثيابٍ سوَى قِميص وسِروال ، وسارُوا بِهِ فى الغَابَة .

ووجَدَ ابنُ بطُوطَة نفسَه ، جالسًا بينهُم على غديرِ ماءٍ بين الأشْجَار وقدمُوا له ماءً ، وخُبزًا . وكان بينَهم شابّان مسلِمَان ، كلَّمه أحدُهم بالفارسِيّة ، فأجابَه على أسئلَتِه ، عدَا أنّه من طَرَفِ السلطان ، وقال لهُ الشّاب :

ـ إنْ لم يقتُلْك هؤلاء ، سيقتُلُكَ سِواهم فى هذهِ النَّوَاحِى .

وجاءَ الليل ، وعهِدَ به كبيرُ اللصوص ، إلى حراسةِ شيخٍ وابنِهِ ، وشاب أسْودَ بشِعِ المنظر ، وفهِمَ ابنُ بطوطةَ أن هؤلاءِ الثلاثةَ سيقتلُونَه . وصحبُوه معهُم إلى كهْفٍ ليَبِيتُوا ليْلَتَهم . وأُصِيبَ الشّاب الأسْوَد فى تِلكَ الليْلةِ بحُمّى مُرْعِدَةٍ ، فتأجَّل قتلُه إلى الصَّبَاح . وزالَت الحُمّى مع طُلُوعِ النهارِ عن الشّابّ الأسْوَد ، فغادَرُوا بِهِ الكهْف ، إلى موضِعِ الغَدِير ، وجلسُوا أمامَه ، يُعِدُّون حَبْلا من القِنّب لشَنْقِه فى شجَرَة . وأشفقَ عليه ابنُ الشّيْخِ ، وأطلَقَ سراحه .

وخشِىَ ابنُ بطوطَة أن يلحقُوا به ، فتوغَّلَ فى أَكَمَةِ قَصَبٍ بمستنقَع واختَفَى ، وسارَ ينقِّل قدمَيْه فى الوحْل كأنَّ أحدًا يطارِدِه ، حتى خرَجَ من الأكَمَةِ إلى الطّرِيق ، وكانتِ الشمْس تغرُب ، ورأى جَبَلًا ، فأسرَعَ إليْه ، ونامَ فى سفْحِه .

أنـا تـائـه

فى الصّباح ، واصلَ ابنُ بطوطةَ سيْرَه ، حتى وصَلَ قريةً خرِبَةً ، بعدَ قريةٍ خَرِبَة ، ودامَ على هذهِ الحالِ أيّامًا ، حتى دخَل قريةً للهُنُود ، فطلَبَ من أهلِها طَعَاما فلمْ يُعْطُوه . وقعَدَ على الأرْضِ يأكلُ أوراقَ

الفِجْل ، وإذا بأحدِهم يرفَعُ فوقَه سيْفَه ليَقْتُلَه ، فلمْ يُبَالِ ابنَ بطّوطةَ بالقَتْل ، كان مُتْعَبًا ، وجَائِعًا ، ومشلُولَ العَقْل . وتركَهُ الرّجُل ، بعدَ أن فَتَّشه وأخَذَ قمِيصَه ، فواصَلَ السيْرَ متعثّراً ، عارِىَ الصّدْرِ . ووصَلَ إلى قريةٍ أخرَى خَرِبة ، ورأى رجلًا أسْود ، بيدِه إبريقٌ وعُكّاز ، وعلَى كاهِله جِراب ، وسمِعَه يُلْقِى عليه بالسّلام ، ويسألُه :

ـ من أنْت ؟

فقال له ابنُ بَطّوطَة :

ـ أنَا تَائِه .

فقال لهُ الرجل :

ـ وأنَا كذلك .

ودلَّى الرجلُ الأسْودُ إبريقَه بحبْلٍ فى البِئر ، وسَقَاه ، وأطعَمَه حُمُّصًا مَقْليًّا ، وأرْزًا ، وتوضّأ كِلاَهُمَا ، وصلَّى ابنُ بطوطة وراءَه . وسألَه الرجلُ الأسْودُ عن اسمِه . فقالَ له :

ـ محمد .

وسألَه ابنُ بطوطة عن اسمِه . فقال له :

ـ القلبُ الفَارِح .

فتفاءَل ابنُ بطّوطة ، ونهضَ القلبُ الفارِح ، وهو يقُول :

ـ باسمِ الله تُرافِقُنى .

فمَشَى معه ابنُ بطّوطة قلِيلا ، ثم عَجَزَ عن السير ، وعجِبَ لأمرِه ، فَمُنذُ لقِىَ الأنِيسَ لم يعُدْ قادرًا على المشْى . فحملَه القلبُ الفارح فوقَ عنقِه ، قائِلا :

ـ قُلْ طولَ الطّرِيقِ : حسُبنا الله ونِعْم الوَكِيل .

وراحَ ابنُ بطوطة يُكرِّر القَوْل ، حتى نامَ فوقَ رأسِ القلْبِ الفارِح ، ولم يَفِقْ إلا حينَ وجدَ نفسَه على الأرْض . فتَحَ عينيْه ، فرأى نفسَه فى قريةٍ عامرةٍ . ولم يجِدِ القلبَ الفارِح الذِى كانَ معَه . وصحبَه الناسُ إلى أميرِ القرية ، وكانَ مُسلِمًا ، فأطعمَه وسَقاه ، وأدخَله إلى الحمّامِ فاغتسَل ، ولبِسَ ثوبًا وعُمَامة . وسألَ الأميرَ عن القلْبِ الفارِح ، فأخبَره أنّه « دِلْشَاد » وأنهُ صوفِىٌّ من مِصر ، وعندئذٍ تذكّرَ أنّه هو بعينِه « ركنُ الدين » الذى قالَ له الزّاهِدُ خليفة ، إنه سينقذُه من مِحنةٍ بأرضِ السِّند .

وصحبَه أميرُ القريةِ إلى « كُول » فوجدَ أصحابَه ما يزالُون بِها ، يبحثُون عنهُ منُذ أسبُوع . وقدَّموا له فرسًا وثيابًا سُلطانية . وواصلُوا رحلتَهم عبرَ البلادِ إلى ميناءِ « قَنْدَهار » (جندهار الآن) .

فـارس فى سفينـة

ركِبَ ابنُ بطّوطة البحرَ من « قَنْدَهار » ، مع وفدِ السّلطان ، وعادَ الفُرسانُ إلى دلْهى .

وبلغَ ابنُ بطّوطة ميناءَ قالِيقُوط « كاليكوت الآن » ، وأقامَ أيامًا مع الوفدِ ، ينتظرُ سفينةً صِينيةً كبيرة ، تحمِلُه إلى الصين . وبقِى بها ثلاثةَ أشهر ، فى ضيافةِ « السّامِرِىّ » أميرِ المدِينَة .

وجاءتْ إلى الميناء سُفُنٌ صِينِيّةٌ كِبار ، ومتوسِّطة ، وصِغَار . وكانتِ السّفُنُ الكبيرةُ من أربعةِ طوابِقَ بها اثنا عشرَ قلْعًا منسُوجةً كالحُصْرِ

من قُضْبَانِ الخيزرَان ، وبهَا بِحَّارَةٌ وخَدَم وعسْكرٌ بالمئات . وبكلّ طَابِق مصريّات « قِمرات » للرُّكّاب ، بكلّ مصريةٍ منْها حَمَّام . وركِبَ الوفدُ مع الهديةِ سفينةً كبيرة ، وحجَزَ لنفسِه مصريةً بإحدَى السُّفنِ المتوسّطة . وبقِيَ هو على الشاطىءِ نهارَه كله . وفي الليل أرادَ الوصُول إلى سفينتِه فحجَزه المَدّ والمَوْجُ عن الوُصُول إلى السّفينة ، وبقِيَ على الشاطىءِ مع خادِمٍ له . وهبّت في الليلِ عاصفةٌ بحرِيَّة ، نزَعَتْ مراسِيَ السَّفينَةِ الكبِيرة ، وحملتْها بعيداً عن الشاطىءِ ، وَقَلَبَتْهَا العاصِفَة في البَحْر ، فغرِقَ أكثرُ وفدِ السّلطانِ مع الهدِيةِ . وكانتِ السفنُ الأخرى قد رحلتْ بسُرْعةٍ خوفاً من العاصِفة ، وبينَها كانت سفينتُه التي تحمِلُ خدمَه وجوارِيه ومالَه . وجلَس على الشاطىءِ حَزِينًا وحينَ رأَى خادِمُه ما نَزَل به ، تركَهُ وحِيدًا ، ومَضَى في البِلاد .

وراحَ ابن بطّوطة يجُوب مدنَ الشاطىءِ عبثًا ، ينتظرُ العثُور على سفينتِه ، أو معرفةِ أخبارٍ عنها . وحينَ يئِس ذهَبَ بحْراً إلى « هنَوْر » ، فأكرمَهُ أميرُها جمالُ الدين ، ونصحَه بعدَمِ العودةِ إلى دلْهِي حتى لا يعاقِبَه السلطانُ لتخلِّيهِ عن الهدِيَّة . وكانَ هذا الأميرُ يُعِدّ أسطُولاً بحرِيًّا لفتْحِ سِنْدَابُور . وانضمّ ابنُ بطّوطة إلى الحملة ، وصارَ فارِسًا يركَبُ فرسًا في سفينةٍ كبِيرة . وقاتلَ بشجاعةٍ مع الأمير ، حتى تحقّق النصْرُ وفُتِحتِ المدينة ، فأكرَمه الأميرُ وأعطاهُ مالاً وجارِيةً ، وأبحرَ في مركبٍ عن سِنْدَابُور . . إلى جُزُرذَيْبَةِ المُهْل (الملدِيف الآن) جنوبِيّ غربِ الهند . وكانت جُزُرًا آمِنة ، يدينُ أهلُها بالإسْلام قبلَ قرنَيْن من الزَمَان .

لست بجامع مال

كانَ أهلُ الجُزر صغارَ الأجسَام ، مسالِمين ، يحبُّون العربَ ، ويعظّمون أهلَ العلم ، فأحسنُوا استقبالَ ابنَ بطوطة . وكانتْ سُلْطانَةُ الجزرُ امرأةٌ اسمُها خديجة ، وكانت زوْجَةً لوزِيرها . وصاهَرَ ابنُ بطّوطة السُّلْطانة ، وتولَّى القَضاء ، وصارتْ له من نساءِ الجزيرةِ أربعُ زوجات ، وعاشَ مَعَهُنَّ راضِيا . لكنّ ابنَ بطّوطة أساءَ التصرفُ في القَضَاء ، وفي مواجَهةِ عاداتِ النساءِ اللاتي يسِرْن شبهَ عُرَاة . وأثارَ ضِدَّه عداوةَ وزيرِ السلطانةِ وزوجِها بسوءِ حُكمِه ، في قضيةٍ تتصلُ بهذَا الوزِير . فقال لهُ الوزِير :

ـ أنتَ رجلٌ تحِبُّ الأسفار . فطلِّق نساءَك ، فإنهُنّ لا يرحَلْنَ عن بلادِهِن ، وأعْطِ مُؤخرَ الصداقِ لزوجاتِك . وانصرِفْ عن القَضَاء ، وارحَلْ عن جزرنا .

ورحَلَ ابن بطوطة ، وأخذَ يتجوّل بينَ الجُزر ، ولهُ من العمرِ اثنتينِ وأربعينَ سَنَة ، متوجّها إلى جزيرةِ « سرنديب » (سيلان الآن) ، ولقِيَ ملِكها ، وزارَ جَبَلَها العَالِي الذى يُقالُ أنّ آدم نزَلَ فوقَه عندما هَبَط من الجَنَّة ، ومغارةَ « الخضرِ » النبيِّ الخالِدِ الجَوَّال ، وبُحيرةً بأعلَى الجبلِ مليئةً بالتماسيحِ والحِيتان . وأعطاهُ ملكُ سِيلان مالاً وجواهِرَ ويواقِيت ، وعَبَر البحرَ في مضيقِ « بلْك » إلى ساحل « كرُوماندُول » شرقِيّ الهِند . وفي مدينةِ « مَنْزةَ » أصيبَ بحُمى قاتِلة ، لم يُنقِذه منهَا سِوى شربُه لشرابِ التمرِ هِنْدِى ثلاثةَ أيام .

وكره ابنُ بطّوطة مُدَن هذا الساحِل ، فأبحرَ عائِداً إلى ساحل المالِيبار ، فأغارَ عليه قراصِنةُ البحْر فى اثنْى عشرَ مركبًا بحرِيًا ، وأخذُوا ما كانَ معه من مالٍ وجَوَاهر ، ولم يبْقَ عليهِ سِوَى ثيابِه ، فعادَ فقيْراً مرةً أخرى إلى ميناء كالِيكُوت ، وقال لنفسِه : « ما أنَا إلا رَحّالة جَوّال ، ولست بجامعِ مَال » ، وقرَّر العودةَ إلى جُزُرِ الملديف ، بدعْوى رؤيةِ ولدِه ، لكنّه رأى من وزيرِها إعراضًا عنه ، فزهِدَ فى ولدِه وردَّه إلى أهلِه ، وسافَرَ بحْرا ، فى خليجِ البنغال ، إلى مناطقَ بنْجَلادِيش وأسامَ المتاخمةِ لبلادِ التِّبت .

وتوغّل ابنُ بطوطة فى بلادٍ كثيرةِ الأرز ، متواصلةِ الظلام ، كثيفةِ السُّحُب ، حتّى وصلَ إلى جِبال « كامِرُو » (كامِرُوب الآن) ، وكانتِ الجبال تتصلُ بالصّين الشماليِّ شرقًا وبلادِ التّبت جنوبًا ، وكان سُكّان الجِبالِ مغُولا أقوياء ، وقابلَ بِها الوليّ « جلالَ الدينِ التّبريزي » ، وواصلَ سيْرَه إلى مدينةِ « سِدْكَاوَان » (سونارجَاوِن الآن) ، ثم أبحرَ إلى شبهِ جزيرةِ ملَقا ، فى بلادِ الملايو ، فاستقبلَه سلطانُ الجزِيرة بترحَاب .

الطــريق إلى الصــين

وعادَ ابنُ بطوطةَ يبحرُ إلى الصين ، على سفينةٍ كبيرةٍ سارتْ به فى بحرٍ راكدِ المِياه ، وتوقفتْ به السفينةُ فى أرخبيل « سُولو » بجزُرِ الفِلبّين ، فى الجنوبِ الشرقِيّ للصّين . ورأى أهلَ الجُزر حُمْرَ الوجُوه ، شُجْعَانا ، وكانُوا يعبدُون الأوثان . وعجِب لأنّ نساءَهم مثلُ نساءِ الأتراكِ والمغُول ، يحسِنُون الرِّماية وركوبَ الخيل ، وكانتْ تحكُمُ الجُزرَ سلطانةٌ باسِلة ،

لها جيشٌ من النِّساء ، وجيشٌ من الرِّجال ، قادرةٌ على النِّزال ، وقتْل الأبْطال . ثمّ واصَلَتِ السفينةُ سيْرها بهِ ، فى أرخبيل سولُو ، إلى الصّين ، حتى توقَّفت بهِ فى ميناءِ الزيْتون (فوتْشو الآن) ، شرقِيّ الصِّين .

رحّبَ التجارُ المسلمونُ فى المدينةِ بابنِ بطوطة ، ونزلَ ضيفًا بها على القاضِى « تاجِ الدين الأرْدَويلى » ، وقابلَ بها السفيرَ الصِّينى الذى كان ملِكُ الصّينِ قد أوفدَه إلى الهِند ، وكان قد نَجَا من الغَرَق . فمهَّدَ هذا لهُ الطريقَ للقاءِ الخانِ الكبير ملكِ المغُول ، وملكِ الصين ، فى مدينةِ « خانْ بالق » (بكين الآن) .

وصلَ ابن بطّوطة إلى العاصمةِ فى الشمال ، فوجدَ البساتينَ تُحِيطُ بها ، والقصرَ الملكى شامِخًا فى وسطِها ، ولكنَّه لم يتمكّنْ من لقاءِ ملكِ الصين « توجُون تيمور » فقدْ كان مشغولاً بحربِ ابنِ عمِّه « فيروز » الذى أعلَنَ الثورةَ ضِدَّه ، لأن الملِك خالَفَ شريعَةَ المغُول ، فى الكتابِ الذى وضعَه « جنكِيز خان » لملوكِ المغول . واحتدَّت الحربُ بيْن الفريقيْن ، وقُتِلَ « توجُوز تيمور » ، وهُزِمَ عسْكرهُ ، وشهِدَ ابنُ بطّوطة تشييعَه كملِك فى تابوتٍ إلى مَدْفَنٍ ملكِيّ ، فى حفلٍ جنائزِيّ مهِيب ، ارتدَى كلُّ الحاضرِين فيه الثِّيَابَ البِيض .

ونصحَ « برهانُ الدين » شيخُ الإسْلام فى مملكةِ الصّين ، ابنَ بطوطة ، بمغادرةِ الصِّين الشمالِيِّ إلى « صين الصّين » (الصين الجنوبى) ، فراراً من الفِتَنِ والإضْطِرَابَات فسارعَ بالعودةِ إلى كِنْسَاى ، ومنهَا إلى ميناءِ « كانْتُون » .

ووجدَ ابنُ بطوطة فى الميناءِ سفينةً كبيرةً لسلطانِ المَلايو ، فركِبَها عائِدًا . وفى الطريقِ ، عند أرخبيلِ سولو ، تغيَّرت الريحُ الطّيبة ، واظلمَّ الجو ، فصارَ كالليلِ عشرة أيام ، وهطَلَتِ الأمطارُ ، وضلَّت السفينةُ طريقَها فى البحرِ ثلاثةً وأربعِين يومًا ، حتّى تمكّنتِ من الاهتداءِ إلى الطريقِ ، والعودةِ إلى الملايو . فحضرَ بها مع سلطانِ المَلايُو زفافَ ابنِهِ ، وزوَّده السلطانُ بما يلزمُه للعودةِ إلى ميناءِ « كولم » بساحلِ المالِيبار . وكانَ قد بلغَ من العمرِ خمسًا وأربعِين سنة ، وخافَ العودةَ إلى دلْهى ، فركِبَ البحرَ فى شهْرِ إبريل إلى بلادِ عُمَان ، فوصلَ إليها بعدَ ثمانيةٍ وعشرينَ يوْما ، وغادرَها بحراً إلى غربىِّ إيران ، فالعِراق ، فالشَّام .

الوباء الكبير

دخَل ابنُ بطّوطة دِمشق ، وكان قد تَرَكَ بها ابنًا له من أمٍّ مغرِبية ، فوجدَه قد ماتَ منذُ أكثرَ من عشرِ سنوات . وعلِمَ من فقيهٍ من أهلِ طنْجة ، أن أباهُ قد مات ، قبْل خمسَ عشرةَ سنة ، وأنَّ أمَّه ما تزالُ على قَيْدِ الحَياة ، فحزِنَ لموتِ أبِيه قبلَ أنْ يَرَاه .

كانَ الغلاءُ شدِيدًا بالشّام ، ونزلَ بالعالمِ عندئذٍ الوَبَاءُ الكبير (الطاعُون) ، واجتاحَ الوباءُ غربىّ آسْيا ، ودُولَ حوض البحرِ الأبيض ، فى شهرِ يُونيُو ، عامَ ألفٍ وثلاثمائةٍ وأربعينَ مِيلادية ، فهَرب إلى غَزّة ، فوجدَ الوَبَاء يجْتاحُها ، وحزِنَ لموتِ كافّة معارِفه بالشام فى الوَباء ، فعادَ إلى مصر ، ووجَدَ الوباء قد قَضَى على جمِيع من عرفَهم من المشايخ



والصالِحين ، وكانتْ سلْطَنَةُ المماليك قد انتقلتْ من السُّلطانِ الناصرِ إلى ابنهِ حَسَن . وقَرَّر عندئذٍ أن يذهَبَ إلى مَكة ، ليؤدِّى فرِيضةَ الحجّ ، عن طريقِ « عِيذَاب » .

الحنين إلى الوطن

أقامَ ابنُ بطّوطة بمكةَ أربعةَ أشهر أدّى فيها فَرِيضَة الحَجّ ، واعتمرَ مَرَّاتٍ كثيرةً ، ثمّ سافَر عبرَ أرضَ الحجازِ إلى الشّام ، ثم إلى مصر ، وعندئذٍ غمرَه الحنينُ إلى بلادِه ، فركِبَ من الاسكندريةِ سفينةً كبيرةً إلى تُونس ، ثم أبْحَر منها بحراً إلى المغرِب . ونزَلَ بمِينَاءِ « كِليَارى » فى جزيرةِ « سِرْدَانيَة » ، وكانتْ فى حكمِ مملكةِ « أَرَجُون » . ونَجَح فى الهَرَبِ هوومنْ معَه من محاولةٍ لأسْرِهم ، ورحلتْ بهمُ السفينةُ إلى الجَزَائر ، قُرب تِلمسَان ، واجتازَ ممرّ « تازَا » إلى بلادِ المغرِب . وعرفَ إثر وصُوله إلى فاس أن أُمَّه قد ماتَتْ فى الوَبَاء الكبير ، قبلَ عامين ، وكان قد بلَغَ من العمرِ سبعاً وأربعين سنة ، قضَى منها خمسًا وعشرِين سنةً فى الأسفار ، هِى سنواتُ رحلتِه الأولى .

سندباد العصر

وتجمعّ الناسُ فى فاس حولَ ابنِ بطّوطة ، يستمعُون بشغَفٍ إلى أخبارِ رِحْلاتِ سندبادِ عصرِهم ، وما رآه فى البلدانِ والبِحار ، من عجائبَ وغرائبَ وطرائف ، وما عاشَه فى أسفارِه من غِنًى وفقْر ، ونعِيمٍ وشقاء . ووصلَ خبرُه إلى الوزير « ابنِ جزّى » فسعَى إليْه ، وقدَّمه إلى السُّلطان



أبى عنان المرينى سلطانِ المغرب ، فألحقَه بحاشيتهِ ، وأجْرَى عليْهِ رِزقاً دائماً ، فاطمأنَّ قلبُه ، وسارَع إلى طنّجة ، يزورُ قبْرَى وَالدِيْه .

وسافرَ ابنُ بطوطة إلى الأندلُس ودخَلَها من ناحيةِ جَبَلِ الفَتْح . وشاهَد التحصينَاتِ الكثيرةِ للمسلمِين فى جبلِ طارق . ورأى كهوفَ الغَجَر ، وأوانىَ « مالقا » المذهَّبة ، ودخَلَ غِرناطة ، فى عهدِ بنى نصر ، آخرِ ملُوكِ الأندلُس . ثم عادَ بحراً إلى أصيلاَ بالمغرِب . ولقِى السلطانَ أبَا عنان بمراكش ، وعادَ معهُ إلى العاصمةِ فاس .

بـلاد الذهب

واستأذَن ابنُ بطوطةَ السلطانَ فى القيامِ برحلةٍ أخيرةٍ إلى السودان الأطلسِىّ غربِىَّ أفريقية . فضحِك السلطانُ ، وقالَ لهُ :

ـ كأنّك تريدُ زيارةَ كلّ بلدٍ فيه إسْلام ، يا رحّالة الإسْلام .

وأذِن له السلطانُ بالسّفرِ ، وزوَّده بالمال ، فتوجَّـه إلى « سَجْلَمَاسَة » جنوبِىَّ المغرِب ، وقابلَ فقيهها ، فاشترَى له جِمالاً أعدّ لها علَف أربعَةَ أشهرُ ، وغادَرَ المدينةَ إلى الصّحْراءِ جنوبِىّ المغرِب ، حتى وصَل إلى قرية تَغَازِى ، وكانتْ جدرانُ بيوتِها ومسجدِها من أحجارِ المِلح ، وسقُوفها من جلُودِ الجمال . وكان ماؤُها مالحًا ، فى أرضٍ كثيرةِ الذُّبَاب .

واستأجَرَ ابنُ بطّوطة كشَّافًا يُرشِدُه إلى الطرِيق ، حتى لا يضِلَّ فى الصحْراء المغرِبية ، ويقعَ فريسةَ لمـا تُثيرُه الصحراءُ فى النفسِ من المخاوفِ والأوْهَام . ودفعَ له أجراً مائةَ مثقالٍ من الذّهب ، فقادَ الكشافُ

المَاهر القافِلةَ عبرَ مورِيتَانْيا إلى « أيْوالاَتَان » شرقِيّ نهرِ السِّنغَال ، وواصلَ طريقَه إلى نهرِ النَّيْجَر ، فى مملكةِ « مالِى » ، إلى مدينةِ « مالِى » (كنجَابِى الآن) ، عاصمةِ المملكة ، فى طريقٍ كثيرِ الخضرةِ والأشجار ، وبينَها أشجارُ « البَاوْبَاب » السريعةِ النموّ ، التى تخزن الماءَ فى جِذْعِها ، فيشربُه الناسُ فى وقتِ الجفاف ، وأشجارِ « التايْبُوكا » التى تنفلِقُ ثمارُها الكمثريّة عن دقيقٍ أبيضَ ، يؤخذُ ويطبَخُ كغِذَاء ، ورأى القرعَ الضخْمَ الذى يُستخدَمُ كأوعيةٍ للماءِ حين يجِفُّ غِلاَفُه .

وفى « مالِى » العاصِمة ، قابلَ ابنُ بطّوطة الملِكَ « مِنْجان الأول » ، وبعَثَ الملِك إليهِ بهديّةٍ مع القاضِى ، وبعثَ هذا بِها مع الفقِيه ، وحملَها الفقيهُ إليه حافِىَ القدميْن ، وهو يقُول باحتفالٍ شَدِيد :

ـ قُم . جاءَكَ قُمَاشُ السّلطانِ وهديتُه .

وإذَا بالهديةِ ثلاثةُ أقراصٍ من الخُبز ، وقطعةُ لحمٍ بقرِىّ مقليّة ، وقرعةٌ بها لبنٌ رائِب ، فضحِكَ ابنُ بطوطة ، وظلّ يترَدَّدُ على مجلِس السلطانِ أربعةَ أشهُر ، ليظفَر منه بهديَّة ، حتّى استجمَع جرأتَه ، وقالَ للملِك بواسطةِ مترجِمه :

ـ لِى ببلادِك أربعةُ أشهر ، لم تُضِفْنِى فيها ، ولا أعطيْتَنِى شيئًا . وقد سافرتُ فى بلادِ الدنيا ، ولقيتُ ملُوكها . فماذَا أقولُ عنكَ عندَ السّلاطين ، حين أغادِرُ بلادَك ؟

عندئذٍ تغيرَ موقِفُ الملك ، وأمرَ له بدارٍ يسكنُها ، ونفقةٍ تجْرِى عليه ، ومنحَه فى ليلةِ السابعِ والعشرينَ من رمضان مالاً من مالِ الزكاة ، بلغَ ثلاثةً وثلاثينَ مثقالاً من الذَّهَب . ثم منحَه مائةَ مثقالٍ أخرَى عند

مغادرَتِه « مالى » العاصِمة . ورحلَ ابنُ بطّوطة إلى مدينةِ « تمبكتو » ، فى طريقِ عودتِه إلى المغرِب .

أخَذَ ابنُ بطّوطة زادًا وماءً يكفيه لسبعينَ يوْمًا ، ووصلَ إلى « سجْلمّاسَه » بأرضِ المغرِب فى شهرِ ديسمبر ، وكان البردُ قارِسًا ، وكانتِ الأرضُ مغطّاةً بالثلوج فى هضبَةِ الأطلسِىّ .

حصـــاد عمـــر

أمرَ السلطانُ المرينِىّ « أبوُعنان » وزيرَه « ابن جِزّى » بكتابةِ رحلةِ ابنِ بطّوطة ، التى دوَّن أخبارَها فى دفاترِه ، ووعَت ذاكرتُه تفاصِيلَها ، بأسلُوبٍ حَسَن . وقضَى الرجُلان : الرحالةُ والوزير ، عاميْنِ فى تدوِينِ أخبارِ رحْلاتَ ابنِ بطّوطة الثلاث ، فى ثلاثِ قارات ، هى قاراتُ العالَمِ القديمِ المعروفِ آنذاك ، وبينَ مئاتِ الجزرُ فى المحيطِ الهندىّ ، والمحيطِ الهادِى ، وكأنّه كانَ وحدَه « هيئةً من العُلماء » مزوّدَة بالأموالِ ففِى هذهِ الرّحْلات استكشَف ابنُ بطوطة أحوالَ العالمِ الإسْلامِىّ فى عصرِه ، فى القرنِ الميلادِى الرابعِ عشَر ، من الصّين شرقا ، إلى المحيطِ الأطلسى غربا ، ومن حوضِ نهرِ الفولجا شمالاً إلى اليمَن وعمان والصومال جنُوبا ، فى رحلةٍ استغرقَت معظمَ سنواتِ عمره : شبابَه كله ، وكهولتَه كلّها ، تدفعُه حوافزُ الدينِ والفضولُ إلى المعرفة ، والحبُّ للمغامرة ، فى جرأةٍ لا يخُاف معها التعرُّض للمخاطِر .

ولقد أتقنَ ابنُ بطّوطة خلالَ رحلتِه الأُولى اللغتيْنِ الفارسيّةِ والتّركية فى عديدٍ من دولِ المغولِ والأترَاك ، وازدادَ علما على الطرقِ ، وقطعَ

مائةً وأربعينَ ألف كيلومتر ، أكثرُها فى البحر ، وتعرَّض للأخطارِ والمَهَالك فى الصحاريِ والغَابات ، وقطاعِ الطريقِ فى البَرِّ ، وقراصِنة السفُنِ فى البحْر . ونجَا مِراراً من الموْت ، ومِنَ الأسْر . وشهِد فى رحلتِه على نفسِه بما له وبما عليه ، فى صدْقٍ مدهش ، لم يعرفْ مثلَه رحالةُ الغربِ الأكبر « ماركُو بولو » الـذى مـات فى البندُقية ، وحقّقت رحلتُه فى ختامِها أضعافَ ما حقّقته رحلةُ « ماركو بولو » منَ اكتشافات ، ولم يجد ، لسوءِ حظه ، من يعنَى من العرَب بدراسةِ رحلتِه ، وتحقِيقها ، مثلمَا وجدَ « ماركُو بولو » من الغربيِّين ، عدَا الدكتور « حسين مؤنس » فى كتابه الحديثِ عنه بعنوان : « ابنُ بطوطة ورحْلاته » .

وبعدَ خمسةِ قرون من وَدَاع ابنِ بطوطة للدّنيا ، بدأتْ عنايةُ المستشرِقين برحلتِه ، ترجمةً لأجزاءَ منها ، أولَهَا كلّها ، إلى اللاتينية ، والإنجليزية ، والفرنسية ، والألمانية ، والتقديمَ لها ، والتحليلَ لأخبارِها ، والتحقيقَ لتواريخِ وأسماءِ الأعلامِ والأماكِن بها .

فى يومِ الاثنين ، السابعِ عشرَ من شهرِ رجب ، عامَ سبعمائةٍ وثلاثةٍ هجرية ، الرابعِ والعشرين من شهرِ فبراير ، عامَ ألفٍ وثلاثمائةٍ وثلاثةٍ ميلاديةً ، وُلِدَ الرحَّالة العربيُّ المسلم : « محمدُ بنُ عبدِ الله ابنِ محمدٍ ابنِ إبراهيم » اللّواتى ، الطنْجى ، الشهير بابنِ بطُّوطة ، بمدينةِ « طنْجة » .

وفى عامِ سبعمائةٍ وتسعةٍ وسبعينَ هجريةً ، ألفٍ وثلاثمائةٍ وثمانيةٍ وسبعين ميلاديةً كان وداعُه للدنيا ، فى مدينةِ « طَنْجَة » .

ومن يزورُ المغرِبَ اليوم ، سيَجِدُ بطنْجةَ درْبا اسمُه « دربُ ابنِ بطوطة » ، به كانَ بيتُه ، وسيجِدُ بالقربِ من سُوق طَنْجة ، ضريحًا لابنِ بطوطةِ ، عليهِ قُبَّةٌ متواضِعَة ، خضراءُ اللوْن ، مثل قبابِ وعمائمِ الأولياءِ والصالحينَ والصوفِيَّةِ ، الذينَ أَحَبَّهُم .



مطبوعات
مركز الأهرام للترجمة والنشر

□ كتب للأطفال والنشء :

* فى مجال العلوم :

- الموسوعة العلمية الأولى للأطفال (ترجمة : د . محمد أمين سليمان)
- طرائف والت ديزنى بالكومبيوتر (ترجمة : د . أيمن الدسوقى)
- ميكى يسأل ويجيب (ترجمة : د . أحمد فؤاد باشا)

□ سلسلة علماء العرب :

* ابن النفيس (مكتشف الدورة الدموية الصغرى)
* ابن الهيثم (عالم البصريات)
* البيرونى (عالم الجغرافيا الفلكية)
* جابر بن حيان (أبو الكيمياء)
* ابن البيطار (عالم النبات)
* ابن بطوطة (رحالة الاسلام) (سليمان فياض)

□ فى مجال التربية البدنية والرياضية :

- موسوعة جوق الرياضية :
* السباحة والغطس
* الألعاب الأوليمبية
* ألعاب الأطفال

(ترجمة : نجيب المستكاوى)

□ فى مجال ترقية المهارات والخيال :

* ألوان ألوان (حسين أبوزيد)
* تعال نصنع (حسين أبوزيد)
* ألوان - ألوان حول العالم (حسين أبو زيد)
* رحلة صيد (شاكر المعداوى)
* حكايات أعجبتنى (يعقوب الشارونى)
* حكايات عربية وإسلامية (علية توفيق - رسوم : كمال درويش)

□ فى مجال التربية الفكرية :

* حوار بين طفل ساذج وقط مثقف (أحمد بهجت)

□ كتب في الابداع الأدبي :

* عرابي زعيم الفلاحين (عبد الرحمن الشرقاوي)
* كانت صعبة ومغرورة (احسان عبد القدوس)

□ كتب في الابداع الفكري :

* سرقة ملك مصر (محسن محمد)
* معجم الأمثال العامية مع كشاف موضوعي (احمد تيمور باشا)
* انطباعات مستفزة (د . يوسف ادريس)
* مذكرات صائم (احمد بهجت)

□ كتب دينية :

* قراءة في وثائق البهائية (د . بنت الشاطيء)
* القرآن مادبة الله للعالمين (الشيخ أحمد حسن الباقوري)
* معاني القرآن بين الراوية والدراية (الشيخ أحمد حسن الباقوري)
* الله في العقيدة الاسلامية (أحمد بهجت)

رقم الايداع بدار الكتب

١٩٨٦ / ٤٦٩٩

مطابع الأهرام التجارية - قليوب - مصر

علماء العرب

٦

ابن بطّوطة

قصة رحّالة مسلم ، عاش منذ ستمائة عام . ساح فى قارات العالم القديم الثلاث ، من المغرب غربًا ، إلى الصين شرقاً ، ومن ضفاف الڤولجا ، وبحر أورال ، وسهوب تركيا فى الشمال ، إلى جزر الهند الشرقية ، وسواحل عمان ، وتانزانيا ، وحوض النيجر ، فى الجنوب ، ودامت رحلته ربع قرن قطع فيه خمسة وسبعين ألف ميل ، وعرف فى أسفاره الغنى والفقر ، والسعادة والشقاء ، والأخطار والأهوال وعاد إلى فاس ليروى للناس حكايات أعجب من حكايات السندباد ، وقائعها أغرب من الخيال . إنها قصة تثير الفخار ، يقرؤها الصغار والكبار .

مركز الأهرام للترجمة والنشر
مؤسسة الأهرام

التوزيع فى الداخل والخارج : وكالة الأهرام للتوزيع
ش الجلاء - القاهرة

مطابع الأهرام التجارية - قليوب - مصر